الكشوف الأثرية وأثرها فى كتابة التاريخ القديم

١ ــ مقدمة :

ظل الشرق القديم غارقاً فى ظلام دامس مليئاً بالأسرار قروناً عدة لا يعرف الناس عنه إلا ما وصل إليهم من بعض الكتاب الاغريق والرومان وما ورد عنه من قصص دينى فى كتاب « العهد القديم » .

ومنذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد أخذ بعض المفكرين من الاغريق يتجولون فى بلاد الشرق القديم وكانت بابل إذ ذاك قد كبت كبوتها الأخيرة وأفل نجمها كما كانت مصر فى النزع الأخير بعد أن وقعت فريسة لححافل الفرس وسادت فيها القلاقل والاضطرابات وعمتها موجة من اليأس كنتيجة لاضمحلال تفشى فى كل ركن من أركان النشاط الحضرى فيها وتعارف المؤرخون على تسمية هذا العصر باسم النكسة الأخيرة .

ولم يبق للمصريين إبانها إلا التحدث عن ماضيهم الطويل المملوء بالحكمة والأسرار يشيرون إلى ما تبقى من معابد وقصور ومقابر كدليل مادى على صحة ما يدعون وعكف كهانهم على التحدث عن ملوكهم الذين فنوا منذ قرون مترنمين بأعمالهم وبسالتهم وجبروتهم ــ حدث هذا عندما انتقل مركز الثقل فى السياسة الدولية إلى بلاد الاغريق وأصبح اليونانيون يسيطرون على الميزان الدولى بعد أن قفزوا ببلادهم إلى الصفوف الأولى فما لبثت أن تولت علم القيادة .

فى ذلك الوقت خرج نفر من الاغريق يتجول فى ربوع بلدان الشرق الأدنى يدفعهم إلى ذلك حب الاستطلاع من ناحية والبحث عن الأصول الأولى للحضارة الاغريقية من ناحية أخرى . ولعل أقدم الذين تجولوا فى الشرق وكتبوا عنه وخصوا مصر بالجانب الأكبر من عنايتهم كان هيكاتيوس الملطى الذى عاش فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد وزار مصر حوالى عام ٥٢٠ ق . م .

وزعم أنه اتصل بالمصريين واستساغ الحياة بينهم وأحب ديانة آمون وفهم أسرارها وعاش فترة طويلة بين كهنة هذا الإله (١) . ثم أعقبه هيرودوت وزار معظم بلدان الشرق القديم حوالى عام ٤٣٠ ق . م . ودون معلوماته التى حصل عليها ومشاهداته فى موسوعة من تسعة أجزاء (٢) على أن هذه الموسوعة التاريخية كانت مستقاة بطبيعة الحال من مصادر متعددة تصف حضارات لا يعرف المؤلف لغاتها ، فضلا عن أن كتابة التاريخ فى ذلك الوقت لم تكن تجنح نحو استقصاء الحقائق وإنما كانت فناً أدبياً خالصاً هدف المؤرخ فيه أن يضيف إلى رواياته كل ما من شأنه أن يفتن الجمهور ويثير فيه حب الاستطلاع . ونسمع كذلك أن أفلاطون وفد إلى مصر فى أواخر القرن الرابع مستعيناً بشحنة من الزيت لتغطية تكاليف السفر والإقامة وانه تحمل مشاق الرحلة فى سبيل التعرف على الحكمة المصرية والتعمق فى أصول الديانة والعلوم المصرية (٣) . ويجب ألا ننسى مانيتون السمنودى (٤) الذى عاصر بطليموس الثانى حوالى عام ٢٨٠ ق . م وكتب تاريخاً لمصر باللغة الإغريقية حاول فيه أن يلتزم الصدق ما أمكن معتمداً اعتماداً كبيراً على الوثائق والأسانيد وإن لم يصلنا منه للأسف غير مقتطفات قليلة . — ونعرف مما كتبه ديودور الصقلى (٥) أنه خصص كتبه الستة الأولى لتاريخ العالم حتى الحروب الطروادية ثم تناول فى الكتب الأحد عشر التالية تاريخ العالم من الحروب الطروادية إلى وفاة الاسكندر الأكبر فى حين تروى كتبه الثلاثة والعشرون الأخيرة قصة العالم من وفاة الاسكندر إلى عام ٥٩ ق . م وقد خصص كتابه الأول لتاريخ مصر والثانى لتاريخ آشور والهند وبلاد العرب والثالث لتاريخ بلاد الحبشة — ثم سترابون (٦) الذى يظن

---

(1) Edward Meyer : "Geschichte des Altertums" I, 2 (fünfte Auflage), Seite 10-11.

(٢) وهيب كامل . « هيرودوت فى مصر — القرن الخامس قبل الميلاد » (دار المعارف) .

(3) Wilhelm Schubart : "Die Griechen in Aegypten" (Beihefte zum "Alten Orient") Heft 10 Seite 7-8.

(4) Eduard Meyer : "Geschichte des Altertums" I, 2. (fünfte Auflage) Seite 12-17.

(٥) وهيب كامل « ديودور الصقلى فى مصر » (دار المعارف) .

(٦) وهيب كامل « استرابون فى مصر » (مكتبة الأنجلو المصرية) .

أنه وفد إلى مصر مع صديقه جالليوس حوالى عام ٢٥ ق.م فعاش فى الاسكندرية حيناً ثم زار آسيا الصغرى وبلاد اليونان وبلاد ما بين النهرين وكتب سبعة عشر كتاباً خصص منها الأحد عشر كتاباً الأولى لبلدان أوروبا وبدأ فى الكتاب الثانى عشر بوصف آسيا الصغرى ثم وصف فى الكتاب الخامس عشر الهند وفارس فى حين دار كتابه السادس عشر حول وصف الجزء الجنوبى الغربى من آسيا فتناول بالحديث بلاد ما بين النهرين وسوريا وفينيقيا وفلسطين وبلاد العرب . أما مصر وبلاد الحبشة فقد خصص لهما الكتاب السابع عشر — وأخيراً نذكر بلوتارك (١) الذى عاش فى أوائل القرن الثانى بعد الميلاد وكان قد استقر فترة طويلة فى مصر وعاشر أهلها وكتب عن عقائدهم وخاصة كتابه المشهور عن عقيدة ازيس وأزوريس .

هؤلاء جميعاً حضروا إلى مصر — وبعضهم لم يحضر إليها إلا بعد أن طاف ببلدان الشرق القديم ، ثم كتبوا مشاهداتهم ونقلوا إلينا ما سمعوه من أهل البلاد وظلت كتبهم هذه هى المصادر الوحيدة التى كان يتلقفها من أراد العلم والمعرفة ونحن نعرف الآن ما حوته هذه الكتب من أخطاء جسام ومغالطات شتى تسببت تارة عن سوء الفهم وتارة أخرى عن جهل المصادر التى استقى منها أصحابها معلوماتهم ولست أدرى مثلا يضرب لذلك أوضح مما أتى به هيرودوت أبو التاريخ . وسوف يعالج هذا الموضوع ويفيه حقه الزميل الدكتور أحمد بدوى فى محاضرته القادمة .

وكلما مرت السنون وتعاقبت الأجيال نجد أن الماضى السحيق بما يحويه من حضارات مزدهرة ينسى ويختفى لتحل محله أوهام تقوم على الخرافة ونسج الخيال . ولأضرب لذلك مثلا حياً يشعرنا بما كان عليه جهل الناس بحضارة مصر فى العصور القديمة . هذا المثل اخترته من كتاب المقريزى حيث أسهب فى ذكر الأهرام (٢) :

---

(1) W. Goodwin : "Plutarck's Morals" Boston 1878 Vol. 4. P. 65-139.

(٢) كتاب « الخطط » للمقريزى الجزء الأول ص ١١ .

اعلم أن الأهرام كانت بمصر كثيرة جداً منها بناحية بوصير شيء كثير بعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس . وأعظم الأهرام ، الثلاثة التى هى اليوم قائمة تجاه مصر وقد اختلف الناس فى وقت بنائها واسم بانيها والسبب فى بنائها وقالوا فى ذلك أقوالا متباينة أكثرها غير صحيح ،وسأقص عليك من نبأ ذلك ما يشفى ويكفى انشاء الله تعالى :

قال « ابراهيم » بن « وصيف شاه » الكاتب فى أخبار مصر وعجائبها فى أخبار سوريد بن سهلوق بن سرياق بن توميدون بن بدرسان بن هوصال أحد ملوك مصر قبل الطوفان الذين كانوا يسكنون فى مدينة أمسوس الآتى ذكرها عند ذكر مدائن مصر من هذا الكتاب وهو الذى بنى الهرمين العظيمين بمصر والمنسوبين إلى شداد بن عاد — والقبط تنكر أن العادية دخلت بلادهم لقوة سحرهم — وسبب بناء الهرمين أنه كان قبل الطوفان بثلثمائة سنة قد رأى سوريد فى منامه كأن الأرض تميد بأهلها وكأن الناس قد هربوا على وجوههم وكأن الكواكب تتساقط ويصدم بعضها بعضاً بأصوات هائلة فغمه هذا ولم يذكره لأحد وتسير القصة تتحدث عن سوريد هذا بن سهلوق وعن مشاعره نحو الرؤيا التى تكررت بشكل آخر وتنتهى بأن الطوفان سيحدث . ويستفسر الملك سوريد قائلا :— هل يلحق الطوفان بلادنا ؟— فقالوا نعم سيلحق الطوفان بلادنا ويلحق بها خراب يقيم عدة سنين . فأمر عند ذلك بعمل الأهرام وأن يعمل لها مسارب يدخل منها النيل إلى مكان بعينه ثم يفيض إلى مواضع من أرض الغرب وأرض الصعيد وملأها طلسمات وعجائب وأموالا وأصناماً وأجساد ملوكهم وأمر الكهان فنقشوا عليها جميع ما قالته الحكماء ونقش فيها وفى شقوفها وحيطانها واسطوانتها جميع العلوم الغامضة التى يدّعيها أهل مصر وصور فيها صور الكواكب كلها كما نقش عليها أسماء العقاقير ومنافعها ومضارها وعلم الطلسمات وعلم الحساب والهندسة وجميع علومهم مفسراً لمن يعرف كتابتهم ولغتهم — ولما شرع فى بنائها أمر بقطع الأسطوانات العظيمة ونشر البلاط الهائل وباستخراج الرصاص من أرض المغرب وإحضار الصخور من ناحية أسوان فبنى بها أساس الأهرام

الثلاثة الشرقى والغربى والملون وكانت لهم صحائف وعليها كتابة إذا قطع الحجر وتم إحكامه وضعوا عليه تلك الصحائف وضربوه فيبعد بتلك الضربة قدر مائة سهم ثم يعاودون ضربه حتى يصل الحجر إلى الأهرام .... وتستمر القصة على هذه الوتيرة ثم يختتمها بأن سوريد هذا قد كتب على باب الهرم مايأتى :ـ

« أنا سوريد الملك ـ قد أتممت بناء اخرم فى ست سنين فمن أتى بعدى وزعم أنه ملك مثلى فليهدمها فى ستمائة سنة ـ وإنى كسوتها عند فراغها بالديباج فليكسها بالحصر ... » .

ولعل هذا يعتبر مثلا بسيطاً لما كان يسود العالم من خرافات حول الآثار القديمة من الذى بناها وكيف شيدت . . . وليس من شك فى أن كل قطر من الأقطار القديمة كان يحالك عنه من أهله وزواره ما يماثل ما كتبه المقريزى من خرافات عن أهرامات الجيزة ، وهى إن دلت على شىء فانما تدل على سذاجة متناهية وبساطة فى التفكير .

ولعل أول البحوث الأثرية أو التنقيبات الأثرية التى عرفها العالم الحديث كانت تلك التى بدأت فى إيطاليا عام ١٧٣٨ م وذلك حين رغبت الملكة « ماريا أماليا كريستينا » إلى زوجها شارل ملك صقلية أن يتحرى أمر المكان الذى عثر فيه على روائع الفن من التماثيل البرونزية التى كانت تزدان بها قصور عظماء نابولى فى ذلك الحين . فما لبث أعوان الملك أن أنبأوه بوجوده إلى الجنوب من عاصمته وبالقرب من بركان فيزوف الذى كان قد هدأ بعد ثورة عنيفة فى عامه السابق أى فى مايو عام ١٧٣٧ . وأمر شارل أن يبدأ البحث فوراً فى المكان الذى أرشدوه إليه مكلفاً رئيس مكتبة القصر « دون مارسيللو ڤينونى » بالإشراف على أعمال الحفر وبعد فترة من العمل تبين أن ذلك المكان المدفون تحت طبقة كثيفة من اللافا يبلغ سمكها ما يقرب من عشرين متراً ليس إلا أطلال مدينة قديمة تحمل اسم Herculaneum ، وسرعان ما انصرف العالم الأوروبى إلى تحرى النصوص القديمة وأخذ يراجع بشغف ما كتب عن هذه

المدينة وعن أختها الكبرى Pompei التى جاورتها فى العمران ثم فى الدمار حينما طمرتهما الحمم التى قذف بها بركان فيزوف فى ثورته الجامحة التى حدثت فى ٢٤ أغسطس من عام ٧٩ ميلادية وأفنت معظم سكانهما .

وانتقل النشاط فى أول ابريل من عام ١٧٤٨ إلى التلال الضخمة التى تكسو مدينة بومبي وبعد مضى ستة أيام عثر المنقبون على أول لوحة مرسومة فيها وفى التاسع عشر من ابريل وجدوا أول جثة من جثث سكان بومبى الذين أفزعهم هول الكارثة فأسرعوا هاربين . ولم يكن صاحب هذه الجثة قد نسى فى محنته أن يصطحب معه نقوده التى عثر على بعض منها ملقاة بجانب كفه . ومنذ ذلك الوقت عمل رجال الآثار فى إيطاليا دون توقف حتى الآن على الكشف عن هاتين المدينتين .

هذه الكشوف الأثرية التى أماط عنها اللثام معول الحفار فى مدينتى بومبي وهيركولانيوم فى منتصف القرن الثامن عشر كانت بمثابة الشرارة الأولى التى أوقدت فى نفوس الناس فى العالم المتحضر جذوة حب الاستطلاع والتعرف على حضارة الأجداد فى كل مكان ، وسيطرت هذه الفكرة على أفئدة الناس إلى درجة أنه حدث نوع من التسابق العجيب بين الأمم الأوروبية هدفه جمع التحف القديمة وملء المتاحف بها ، وشارك الحكومات نفر غير قليل ممن تيسرت لهم الثروة وكان هدفهم هم أيضاً أن ينفقوا أموالهم على جمع التحف من كل مكان وبذلك تكونت مجموعات ضخمة من الآثار فى حيازة الهواة .

وليس من شك فى أن الفترة التى تلت الكشف عن آثار بومبي كانت فترة نهب وقرصنة لم يكن يستهدف الحفار إبانها إلا الاستيلاء على النفيس من التحف غير عابىء بالطريقة التى يعثر بها على هذه التحف ولا بدراسة ولو سطحية لظروف المكان أو بالمخلفات الأخرى التى لا ينم شكلها على أنها قطع ذات قيمة مادية .

٢ — الكشوف الأثرية فى مصر :

ويعتبر وفود نابليون بعلمائه على مصر بمثابة الشعاع الأول الذى نفذ إلى

الظلمات التى أحاطت بمصر القديمة فأضاء جانباً يسيراً من جنباتها . فكما نعلم جميعاً استصحب نابليون معه فريقاً من العلماء والباحثين وصلوا إليها فى الثانى من شهر يوليه عام ١٧٩٨ وألف منهم جمعية علمية «Institut d'Egypte» عكفت على تسجيل كل ما وجدته فى مصر ومن ذلك آثارها الظاهرة فوق سطح الأرض . ولقد ساعد أولئك العلماء فى أداء مهمتهم رجل موهوب فى فنه رسم كل شىء وقع تحت نظره وهو البارون « دينون » الذى لم يترك مكاناً فى مصر لم يذهب إليه حتى بلغ أسوان ورسم المئات من اللوحات الرائعة وهو صاحب تلك الرسوم الدقيقة التى تمثل الآثار المصرية فى كتاب « وصف مصر» Description de l'Egypte وهو الكتاب التى يعتبر بمثابة الدعامة الأولى التى قامت عليها دراسات « الايجيبتولوجى » ظهر هذا الكتاب فى أربعة وعشرين جزءاً خلال أربع سنوات من ١٨٠٩ إلى ١٨١٣ وكان لظهوره دوى هائل فى المحافل العلمية بأوروبا كما أنه سلط الأضواء على مصر وجعلها منذ ذلك الحين قبلة الباحثين والعلماء والمنقبين .

على أن كتاب « وصف مصر» لم يكن بمفرده الناقوس الذى أعلن للعالم بدء موجة من البحث والاستقصاء هدفها الكشف عن حضارة المصريين القدماء وتاريخهم وإنما هناك حدث أهم وقع أيضاً إبان هذه الفترة ألا وهو العثور على « حجر رشيد » . فى عام ١٧٩٩ وفى شهر أغسطس كان بعض رجال الحملة الفرنسية يقومون بحفر خندق حول قلعة « سان جوليان » بالقرب من المصب الغربى للنيل عند رشيد وعثروا على حجر من البازلت كتب على وجهه الأمامى نقش بثلاث لغات لكل منها طريقتها الخاصة فى الكتابة فالعليا منها بالخط « الهيروغليفى » والوسطى بالخط الشعبى الشائع فى أواخر العصر الفرعونى وهو ما يطلق عليه « الخط الديموطيقى » ، وكتبت الكتابة السفلى منها بالخط اليونانى المعروف والمقروء فى ذلك الوقت (١) ولقد عرف الناس منه أنه تسجيل لشكر كهنة منف على العطايا التى أغدقها عليهم بطليموس الخامس الذى حكم مصر

---

(١) أدلف إرمان وهرمان رانكه : « مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة » ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال صفحة (ا – ب) وما بعدها (لوحة ١) .

حوالى عام ١٩٦ ق . م كما ورد فى النص اليونانى أن هذا الشكر سجل بالخط المقدس وبالخط الشعبى والخط اليونانى وهكذا تبين للباحثين أن حجر رشيد يحوى ترجمة للنص اليونانى بالخطين الهيروغليفى والديموطيقى . وتهافت الباحثون على محاولة قراءة النص الهيروغليفى ومن أهمهم :

1. Thomas Young
2. Jean François Champollion
3. Aker Blad
4. De Sacy

وليس من شك فى أن شامبليون كان أكثرهم توفيقاً، إذ خرج على العالم بحقيقة ثابتة وهى أن « الهيروغليفية » ليست كتابة رمزية بحتة كما اعتقد الناس من قبل (١) بل أكد أنها فى معظمها كتابة صوتية تتكون من علامات مختلفة لكل منها قيمة صوتية محددة . وعندما توفى شامبليون بعد عشر سنوات من كشفه العظيم أى عام ١٨٣٢ كان قد تمكن من أن يقرأ عدة نصوص بشكل يقرب من الحقيقة ويمكننا أن نقول أن جميع خطوات التقدم التى سارت فيها الدراسات الأثرية فيما بعد كانت تقوم على الأسس التى أقامها « شامبليون » .

وفى الربع الأول من القرن التاسع عشر هبت موجة ثانية مباركة استهدفت تسجيل النقوش والرسوم ووصف الآثار القائمة مع قليل من الكشوف المنظمة . ولقد بدأت بعثة « روسولينى » عام ١٨٢٨ وامتد نشاطها حتى الشلال الأول(٢) ثم تلتها بعثة « ريتشارد ليبسيوس » عام ١٨٤٠ مبتدئة من الدلتا شمالا حتى أقاصى

---

(١) لقد قام بعض العلماء بمحاولات شتى لتفسير علامات اللغة المصرية القديمة وكانت محاولات فاشلة بدليل أن العلامة المشهور فى وقته Athanasius Kircher قدم بحثاً شرح فيه العلامات السبعة التى يحويها أو يتكون منها لقب أباطرة الرومان : Awtkrtr مترجماً إياه كما يأتى : « أزوريس خالق قوة الخصوبة وخالق جميع النباتات وقوة تناسله تحضر من السماء المقدسة إلى دولته » .

(2) Rosellini, Ippolito : "I monumenti dell'Egitto e della Nubia, disegnati dalla spedizione scientifico-letteraria toscane in Egitto" Pisa 1832-44.

السودان جنوباً [1] . ولم يبق لبسيوس على أثر مصرى قديم رآه دون أن يرسمه ويصفه وصفاً علمياً دقيقاً ، كما وفق إلى الكشف عن عدة مقابر فى جبانات الجيزة وسقارة ومصر الوسطى ، ثم نشر نقوش بعثات التعدين التى أوفدها المصريون القدماء إلى مناجم شبه جزيرة سينا .

على أن فتح باب الدراسة والتنقيب فى مصر لم يكن خيراً كله ولعل خيره كان أقل بكثير من شره لأن علم الآثار فى ذلك الوقت أخذ يرتمى فى أحضان الدخلاء بعد أن اجتذب نفراً من المغامرين الذين اتخذوا من البحث عن الآثار مهنة للكسب والاثراء ونحن لا نتردد فى وصف هؤلاء بناهبى القبور ومخربى الآثار ، ويجب أن نذكر فى مقدمتهم «جيوفانى بلزونى» الذى قيل انه كان يعمل فى سيرك بانجلترا ثم وفد إلى مصر ليروج توزيع ماكينات للرى غير أنه مالبث أن وجد فى الكشف عن الكنوز الأثرية مورداً خصباً للكسب فعمل فى الحفر باسم البحث العلمى لحسابه ولحساب القنصل البريطانى فيما بين ١٨١٧–١٨١٩ [2] ولقد أجمع الأثريون على تشبيه هذا الرجل بحرباء آدمية أما هو فقد تحدث عن نفسه فى وصف جولاته بأنه كان فى كل خطوة يخطوها يهشم جانباً من مومياء مصرى قديم وأنه ما استقر على جثة حتى تفتتت من تحته كالهشيم وكان هذا بالطبع بحثاً وراء التحف .

ويبدو أن النجاح الذى أصابه بلزونى كان حافزاً للقنصل الفرنسى إذ ذاك واسمه « دروتى » [3] أن يقلده فاستأجر هو الآخر وكلاء يعملون لحسابه فى

---

(1) Lepsius, Karl Richard : "Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien" Berlin 1849 ff ; Fünf Bande Text, Leipzig 1897 ff.

(2) Belzoni, Giovanni Battista : "Narrative of the operations and recent discoveries within the pyramids, temples, tombs and excavations in Egypt and Nubia" London 1820.

(3) Cailliaud, Frédéric ; "Voyage à l'oasis de Thèbes et dans les déserts situés à l'orient et à l'occident de la Thebaide :

1. Le voyage à l'oasis du Dakel par M. le Chevalier Bernardin Drovetti.
2. Le journal du premier voyage de M. Cailliaud en Nubie.
3. Des recherches sur les oasis etc." Paris 1821.

التنقيب وعلى رأسهم « فريدريك كايو » وانتهى الأمر بأن أصبح التنافس بين الفريقين كثيراً ما يحسم بالسلاح . وكان « كارتر » على حق عندما وصف هذه الأعمال بأنها كانت أقرب إلى أعمال القرصنة منها إلى البحث والتنقيب . وعلى كل حال كان من نتيجة هذه الأعمال أن دخل سيل من التحف الأثرية فى متاحف لندن وباريس وتورين وبرلين فضلا عما اكتنزته المجموعات الخاصة.

على أنه ما كاد القرن التاسع عشر ينتصف حتى كانت أهم الآثار القائمة فوق سطح الأرض قد سجلت كما قطعت محاولات قراءة الكتابة الهيروغليفية شوطاً طيباً وغدا فى وسع الباحثين أن يحققوا ما كتبه الرواد الأوائل من الإغريق والرومان عن الحضارة المصرية وقدمها وأخذ نفر من العلماء الممتازين يبحثون بجهد لا يعرف الملل فى تلك المادة الضخمة التى وصلت إلى أيديهم فى الكتب التى سجلت الآثار والتى سبق ذكرها (١) ولقد أخذ هؤلاء العلماء ينادون لأول مرة من أنه لم يعد من سبيل للتردد فى تحديد المكان الذى يكشف فيه عن الأثر وأن يعمل الباحث على المحافظة على كل ما يعثر عليه من أشياء فى مكان تنقيبه .

ولقد برز فى ذلك الوقت اسم « أوجست ماريت» Auguste Mariette الذى لاشك فى أنه قد تميز عمن سبقوه من حيث الخبرة والهدف العلمى ولو أنه لم يكن كذلك بالنسبة إلى من أتى بعده من العلماء . لقد أظهر « ماريت » نشاطاً كبيراً فى أعمال الحفر والتنقيب نحواً من ثلاثين عاماً كشف فيها عن السرابيوم وكثير من المقابر فى سقارة ومعبد الوادى للملك خفرع فى الجيزة كما كشف عن معابد ابيدوس ومدينة هابو والدير البحرى وادفو ودندره كما يرجع إليه الفضل فى إنشاء أول متحف للآثار بمصر عام ١٨٥٩ فأبطل بذلك حجة الأوروبيين بالخروج بآثارنا على أساس أننا لا نقدرها . ولماريت فى قلوبنا

---

(١) من أهم الكتب التى ظهرت فى هذه الفترة والتى كشفت النقاب عن كثير من نواحى الحضارة المصرية وتاريخها هى :

(1) Wilkinson, Sir John Gardner ; "Manners and customs of the ancient Egyptians" London 1837.

(2) Kernick, John ; "Ancient Egypt under the Pharaohs" London 1856.

(3) Uhlemann, Maximilian Adolph "Three days in Memphis" Philadelphia 1858.

منزلة فنحن لا ننسى له صنيعه المشهور وذلك أنه عندما عرضت نفائس متحف بولاق فى معرض باريس عام ١٨٦٧ وطمعت الملكة « أوجينى » فى الحصول عليها عن طريق اسماعيل أحالها إلى « ماريت » قائلا : إن ثمة من هو أقوى منى فى بولاق . ورفض ماريت وأصر على رجوع التحف إلى مصر .

ولكن هذا العالم كان من ناحية أخرى شغوفاً بالبحث عن النفائس قبل كل شىء فكان ينقب وينقب وقل ان أتم عملا بدأه ما دام قد استوفى من نفائسه غايته ، كما أنه لم يعن بتسجيل التفاصيل ولم ينشر نتائج كشوفه كاملة بل ان بعضها لم ينشر إطلاقاً ، ولم يقدر فى عمله ما سوف تحتاج إليه الأبحاث المستقبلة من معلومات دقيقة عما تم الكشف عنه من آثار . واكتفى بأن أسوق هنا مثلا واحداً لأكشف عن ناحية من نواحى الضعف فى « ماريت » : أبلغ الأمير نابليون ابن عم الملك نابليون الثالث الحكومة المصرية برغبته فى زيارة مصر ففكرت الحكومة أن تقدم مفاجأة منقطعة النظير لضيفها الكبير واقترح « ماريت » أن يقوم بحفائر واسعة ليكشف عن تحف تليق بمقام الزائر ثم يعيد دفنها ويكشفها مرة ثانية أمام الأمير نابليون ووقع اختياره على جبانة الأسرة السابعة عشر فى دراع أبو النجا بالأقصر ونفذ مشروعه الغريب ونقب فى كل ركن من أركان هذه الجبانة سعياً وراء التحف دون أن يسجل أو يرسم أو يصف ما يعثر عليه ثم أهال الرمال ثانية على الجزء الذى اعتقد أنه يصلح لتمثيل المسرحية أمام الضيف الكبير — وهنا حدثت المفاجأة واعتذر الأمير عن رحلته إلى مصر ولكن هذا الاعتذار لم يمنع « ماريت » أن يعيد الحفر ويكون مجموعة نفيسة من التحف يقدمها باسم مصر إلى الضيف المعتذر ويسعى فى نفس الوقت لدى نابليون ليكون شفيعه عند خديوى مصر للموافقة على إنشاء مصلحة للآثار المصرية وأن يكون هو أول مدير لها [1] . حقيقة أن « ماريت » نجح فى مسعاه وتمكن من تنفيذ فكرته فى إنشاء مصلحة ترعى شئون الآثار وتشرف على أعمال الحفر والصيانة إلا أنه من ناحية أخرى كان من نتائج تصرفه أننا فقدنا كل

(1) Steindorff, G. & Wolf, Walther ; "Die Thebanische Grœberwelt" (Leipziger Aegyptologische Studien) Heft 4 Seite 31 (Hamburg 1936).

المعلومات التى كان يمكن جمعها عن عصر هذه الأسرة المهمة فى التاريخ المصرى[1]

وعين « ماسبرو » G. Maspero خلفاً لماريت مديراً لمصلحة الآثار وكشف عن هرم اوناس وبذلك أماط اللثام عن « متون الأهرام » التى تعتبر أهم مصدر للباحثين للتعرف على العقائد المصرية ، الدينية منها والجنزية التى كانت سائدة فى الدولة القديمة وكان « ماسبرو » عالماً واسع الاطلاع متعمقاً فى بحثه لم يترك ناحية من نواحى الحضارة المصرية لم يكتب فيها ومكتبة «الدراسات الأثرية » تزخر بمؤلفاته التى تربو على المائتى والخمسين مؤلف أكثرها لا يزال مستعملا حتى اليوم من بين المراجع المهمة التى يعتمد عليها رجال الآثار . وكان « ماسبرو » أول من أباح للبعثات الأجنبية حق التنقيب فى مصر وتألفت على أثر ذلك فى لندن : The Egypt Exploration Fund

وفى القاهرة La mission archaeologique française au Caire

وكان أبرز رجال الآثار فى العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر هو فلندرز بترى الذى كان مما ذكره عن نفسه أنه نشأ أثرياً بالسليقة ومنـــذ صغره . حينما أتى إلى مصر لم يرتض طريقة ماريت فى الحفر وكان عليه أن يعمل بما هو خير منها وقد فعل — إذ وضع لنفسه أسـساً جديدة وهى الحرص البالغ حين الكشف وحين التجميع وتقدير أهمية كبرى لكل شىء يكشف عنه دون تفرقة بين ما هو نفيس براق وبين ما هو عادى . ولقد ترتب على الأخذ بهذا المبدأ أن أصبح لأدوات الحياة اليومية نصيب كبير من الدراسة والتمحيص . وترسم بترى أيضاً فى كشوفه احتياجات البحوث والكشوف المستقبلة ونادى بوصف كل شىء يكتشف وأن ينشر بأسرع ما يمكن ولقد ارتأى فى هـــذه المبادىء وحدها وسيلة الأثرى إلى كتابة التاريخ .

---

(١) لقد اضطر فى آخر الأمر العالم الأمريكى « وينلك » أن يبحث عن آثار هذه الأسرة التى تفرقت فى معظم متاحف العالم (القاهرة ولندن وباريس وبرلين وليدن) ويدرسها وينشرها فى مقاله المشهور :

Winlock, H.E. "The tombs of the Kings of the 17th Dyn. at Thebes" (in J.E.A. Vol. 10 P. 217).

وإذا كان الأثرى الألمانى Adolf Furtwaengler [1] قـد أبرز أهمية الفخار الملون والمزخرف فى تأريخ فترات تطور الحضارة المسينية فيرجع الفضل إلى بترى فى إثبات أهمية الفخار الغفل من الزخرفة فى التاريخ إذا مابحث فى تفصيل وتدقيق . لقد قدر هذا الأمر أثناء كشوفه فى نقراطيس عام ١٨٨٠ [2] ثم اختمرت لديه الفكرة وعمل على تحقيقها أثناء تنقيبه فى تل الحيسى بفلسطين عام ١٨٩٠ [3] حيث عثر على تل يرتفع إلى ما يقرب من ٢٠ متراً ويتكون من طبقات عدة لكل طبقة منها ما يميزها من أنواع الفخار ، ثم بعد ذلك عثر فى نقاده وبلاص عام ١٨٩٤ — ٩٥ وفى « هو » عام ١٨٩٨ — ٩٩ [4] على آثار مختلفة كل الاختلاف عما تعوده الباحثون من قبل ، فلم يكن بينها أثر مكتوب بل هى قطع صامتة . لا تعبر لكاشفها عن عصرها ، ردها أولا إلى جنس أجنبي نزل مصر فى أواخر الدولة القديمة ثم ما لبث أن تبين أنها آثار ترجع إلى ما قبل عصر الكتابة وذلك بعد أن قارنها بما نتجت عنه أبحاث de Morgan [5] فى ذلك الحين ، فعمـل بترى على أن ينطقها بترتيبها وتبويبها واستعان فى ذلك بتفاصيل المادة واللون والصناعة وكانت الاختلافات الدقيقة فى ذلك كله هى وسيلته إلى ابتداع نظرية التأريخ المتتابع الذى يمثل حضارة مصر وتطورها فى عصور فجر التاريخ [6] — وليس من شك فى أن بترى استعان بالفخار بل اعتمد على أنواعه الغفل منها والملون كل الاعتماد فى وضع نظريته المذكورة على أنه لم يتخذ تطور أشكال الفخار كوسيلة لتأريخ

---

(1) Furtwængler und Lœschcke ; "Mykenische Vasen" 1886.

(2) Petrie, Sir William Flinders and Gardner, E.A. ; "Naukratis" part 1-2 London 1886-88.

(3) Cf. Albright, W.F. : "The Archaeology of Palestine" (Pelican) 1951. Page 29.

(4) Petrie, Flinders : "Diospolis Parva" "The cemeteries of Abadiyeh and Hu 1898-99". London 1901.

(5) Morgan, Jacques Jean Marie de ; "Recherches sur les origines de l'Egypte" Paris 1896.

(6) Petrie, Flinders ; "Methods and Aims in Archaeology " London 1904.

حضارات فجر التاريخ فى مصر فحسب وإنما خرج به إلى عقد التواريخ المقارنة بين الحضارة المصرية وغيرها من حضارات الأمم المتاخمة .

ومن أهم الكشوف التى حدثت فى أواخر القرن التاسع عشر كانت تلك المجموعة الكبيرة من أوراق البردى التى عثر عليها بترى فى اللاهون (١) وتتكون من برديات طبية بعضها يبحث فى أمراض النساء وأخرى تبحث فى الطب البيطرى « علاج أسنان وعيون الكلاب والعجول » (٢) ثم وجد بينها أيضاً رسائل أدبية وتعليمية وبقايا بردية رياضية ونشيد باسم سنوسرت الأول .

وفى هذه الفترة أيضاً عثر « كويبل » على مقبرة تقع أسفل أحد المخازن الخلفية الملحقة بمعبد الرامسيوم بطيبة ووجد فيها صندوقاً خشبياً ملىء إلى حوالى ثلثه ببرديات مختلفة تمزق أغلبها ولكن أمكن التعرف منها على :

١ — البردية الجغرافية المعروفة باسم Ramesseum Onomasticon (٣).

٢ — طقوس حفل تتويج سنوسرت الأول (٤) .

٣ — أجزاء من قصتى سنوهى والفلاح الفصيح (٥) .

٤ — رسائل من سمنه وغيرها من الحصون الجنوبية ذا قيمتها فى التعرف على شئون الإدارة فى الجنوب .

ونحن لا ننسى أيضاً ما ترتب على كشف أرشيف تل العمارنة الذى حوى رسائل على جانب كبير من الأهمية التاريخية إذ أنها تكشف القناع عما كان يجرى فى الشرق القديم من تنازع قوى بين مصر وبلاد الحيثيين . ولقد عثر على هذه

---

(1) Petric, Flinders ; "Illahun, Kahun and Gurob" 1889-90.

(2) Griffith, "Hieratic papyri from Kahun" 1898.

(3) Gardiner, Alan H. "Ancient Egyptian Onomastica" 2 vol. Oxford 1947.

(4) Sethe, Kurt ; "Dramatischa Texte zu Altaegyptischen Mysterienspielen" Leipzig 1928.

(5) A :— Gardiner, Alan Handerson ; "Die Erzahlung von Sinuhe und die Hirtengeschichte" Leipzig 1909.

B :— Vogelsang, Friedrich ; "Kommentar zu den Klagen des Bauern" Leipzig 1913.

الرسائل عام ١٨٩٠ فى أطلال مدينة تل العمارنة ويبلغ عددها ما يقرب من ٣٠٠ رسالة وكتبت بالخط الاسفينى على لوحات من الطمى المجفف وتمثل لنا الخطابات الرسمية المتبادلة بين ملك مصر وملوك بابل ونينوى وميتانى وقبرص وكذلك أمراء الولايات المصرية فى سوريا وفلسطين وللأسف أهمل أمر هذه اللوحات فى البداية نظراً للشكوك التى أحاطت بقيمتها ثم عرفت بعد ذلك قيمتها العلمية وقام بنشرها العالم الألمانى « كنودسون » (١) فى مستهل القرن العشرين .

ونذكر أيضاً ذلك الكشف الكبير الذى حدث فى أواخر القرن التاسع عشر وتمخض عن العثور على أعداد ضخمة من المومياات الملكية التى حرص أحد فراعنة الأسرة العشرين على إيداعها مخبأ أميناً بمنطقة الدير البحرى (٢) فكان فى الكشف عنها مادة لا تقدر لأبحاث علماء الآثار من ناحية وعلماء الطب والتشريح من ناحية أخرى (٣) .

ومنذ أول القرن العشرين زادت الأبحاث العلمية والكشوف الهامة فى مصر ولعل من أهم الأحداث التى وقعت فى مستهله هو ذلك الاجتماع العلمى الذى عقد فى فندق مينا هاوس فى نوفمبر عام ١٩٠٢ وحضره ماسبرو ورايزنر وبورخاردت وسكابارللى وقسموا جبانة الجيزة إلى مناطق مختلفة خصصت كل منطقة لأعمال الحفر العلمى لإحدى البعثات العلمية الآتية :—

1. The Hearst Egyptian Expedition of the University of California.

2. The Sieglin Expedition of the University of Leipzig.

3. The Expedition of the Turin Museum.

ومنذ عام ١٩٠٧ تولت الكشف فى تل العمارنة البعثة الألمانية للدراسات الشرقيـــة Die deutsche Orient Gesellschaft وانتهت أعمالهـــا هناك بقيام الحرب العالمية الأولى وأعقبتها بعثة Egypt Exploration Society

---

(1) Knudtzon, J.A. ; "Die El-Amarna-Tafeln". Leipzig 1915.

(2) Maspero, G. ; "Rapport sur la trouvaille de Dier-el-Bahari" (Institut Egyptien. Bulletin, Le Caire 1883).

(3) Smith, Elliot and Dawson, Warren ; "Egyptian Mummies" London 1924.

وفى نهاية الربع الأول من القرن العشرين كشف معول الحفار عن مقبرتين كان لهما أكبر الأثر فى زيادة ما نعرفه عن حضارة عصرين من أهم عصور التاريخ المصرى : الأولى هى مقبرة « حوتب — حر — اس » أم الملك خوفو عثر عليها رايزنر فى الجبانة الشرقية الواقعة إلى الشرق من الهرم الأكبر (١) والثانية هى مقبرة الملك « توت عنخ أمون » أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر (٢) وممن تولوا أمر مصر فى أعقاب حركة التوحيد التى قام بها أخناتون .

ويمتاز القرن العشرون فى مصر بالدراسات الشاملة التى هدفت إلى التعرف على حضارات عصور فجر التاريخ ومدى ما وصل إليه المصرى من تقدم فى مدنيته فى تلك العصور التى سبقت مينا بآلاف السنين خاصة ولأن كتب التاريخ التى نشرت فى أوائل القرن العشرين لم تذكر عن عصور فجر التاريخ فى مصر إلا القليل من المعلومات التى قامت على أبحاث كل من « دى مورجان » و « فلندرز بترى » .

حفر « يونكر » (٣) فى غرب الدلتا فى منطقة مرمدة بنى سلامه وعثر على حضارة ردها إلى العصر الحجرى الحديث ثم قامت « كيتون تمسون » و « جاردنر » خلال السنوات ١٩٢٤ — ١٩٢٨ بأبحاث فى منطقة الفيوم (٤) انتهت بتقسيم حضارتها إلى فترتين : فيوم ا ، وفيوم ب — ردت الأولى إلى حوالى ٥٠٠٠ ق . م والثانية إلى ٤٥٠٠ ق . م . وقامت حفائر المعادى بإشراف مصطفى عامر ومنجين (٥) وأرخت فى أول الأمر بالعصر الحجرى الحديث

---

(1) Reisner, G. and Smith, W. S. ; "A History of the Giza Necropolis" Vo. II. The tomb of Hetep-Heres. (Harward Univ. Press 1955).

(2) Carter, Howard ; "The Tomb of Tut-Ankh-Amen".

(3) Junker, H. ; "Vorberichte uber die Grabung auf der Neolithischen Siedlung von Merimde — Benisalama" in Anzeigen der Wiener Akademi der Wissenchaften (Hist. Klasse) 1929-34.

(4) Caton Thompson and Gardner ; "The Desert Fayum" 2 vol. London 1934.

(5) Menghin, O. and Amer, M. ; "The excavations of the Egyptian University in the neolithic site at Maadi" Cairo 1936.

ثم ردت بعد ذلك إلى أواسط عصر ما قبل الأسرات أى تكون معاصرة لحضارتى جرزة والسمانية . وقام العلامة « بوفيه ــ لابيير » (١) بأبحاثه فى منطقة العباسية وبدراساته على الظران الذى عثر عليه فى منطقة العمرى كما حفر «دى بونو » (٢) فى منطقة حلوان .

أما فى مصر العليا فقد قامت المدرسة الانجليزية للاثار فى مصر ، بكشوفها فى البدارى وفيما حولها بين ١٩٢٢ ــ ١٩٢٥ فاكتشف « برنتون » جبانات البدارى وعملت « كيتون تمبسون » فيما بين قاو والبدارى وصدرت نتائج بحثهما فى مؤلف واحد (٣) اعتبرت فيه حضارة البدارى سلفاً لحضارات ما قبل الأسرات فى مصر العليا .

ثم واصل « برنتون » كشوفه فى مصر الوسطى وعثر فى دير تاسا قرب نزلة المستجدة (٤) على قرية وجبانة ردهما إلى حضارة تسبق عصر حضارة البدارى وقام « فينيارد » فى نجع حمادى بحفائر بالقرب من قرية « السبيل » (٥) وأثبت أن حضارتها « السبيلية » ترجع إلى العصر الحجرى الحديث .

وعلى أساس ما كشف فى الوجهين من حضارات فجر التاريخ اتجه البحث إلى تقصى نشأة هذه الحضارات وقامت نظريات متعددة عن أصولها . وكان يترى قد قسم حضارات فجر التاريخ (أو حضارات نقاده) فى الصعيد ومصر الوسطى إلى ثلاث مراحل (٦) .

---

(1) Bovier Lapierre ; "L'Egypte Préhistorique" (dans Précis de l'histoire d'Fgypte).

(2) Debono ; "Heluan" (Chronique d'Egypte No. 41. Bruxelle 1946).

(3) Brunton and Caton Thompson ; "The Badarian Civilisation and Predynastic remains near Badari". London 1928.

(4) Brunton ; "Mostagedda and the Tasian Culture" London 1937.

(5) Vignard, M.E. ; "Une nouvelle Industrie Lithique, le Sebilien" Bull. de L'Institut Franc. D'Arch. Orientale Vo. XXII 1923 (P. 1-76).

(6) Petrie, Flinders ; "Prehistoric Egypt" London 1920.

١ ــ « العمرة » وتشغل ما بين ٣٠ و ٣٨ من توقيته المتتابع وتمثل بداية عصور فجر التاريخ المبكرة بالنسبة إلى عصر ما قبل الأسرات .

٢ ــ « جرزه » وتشغل ما بين ٣٩ و ٦٣ من توقيته المتتابع وتمثل أواسط هذه العصور .

٣ ــ « سماينة » وتشغل ما بين ٦٤ و ٧٨ من توقيته المتتابع وتمثل أواخر هذه العصور ثم أدت كشوف حضارات البدارى وتاسا إلى شغل ما قبل المرحلة ٣٠ من توقيت بترى المتتابع فأصبح لعصر فجر التاريخ المصرى عقد متصل يبدأ من تاسا وينتهى إلى عصر الأسرات وتشغله فيما بين ذلك حضارات البدارى والعمرة وجرزة وسماينة .

ولقد جرت محاولات لادماج حضارات فجر التاريخ فى الوجه البحرى فى هذا العقد لحصها « تشايلد » (١) وسليمان حزين (٢) وباومجيرتل (٣) وهذه المحاولات يأخذ بها البعض وينفيها البعض الآخر .

وهكذا قامت البعثات المختلفة بكشوفها المتتالية فى المناطق التى عاش فيها المصرى الأول وكثرت التفسيرات وتعددت النظريات الخاصة بالتأريخ الخاص بتتابع حضارات هذا العصر وأصبحنا الآن على استطاعة من أن ندرس فتراته ونتحدث طويلا على مدى تطور حضارات المصرى الأول منذ أن ظهر فى أرض مصر حتى استطاع أن يبدأ عصره التاريخى حوالى عام ٣٢٠٠ ق . م وهو العصر الذى نعتمد لتأريخه على وثائق وأسانيد مكتوبة .

٣ ــ الكشوف الأثرية فى العراق :

هذا ما كان من أمر الكشوف الأثرية فى مصر ومدى ما أثرت به على إعادة كتابة التاريخ المصرى الذى كان علماء القرن التاسع عشر يبدؤنه بالأسرة

---

(1) Childe, G. ; "New Light on the most Ancient East" 1935.

(2) Huzein, Soliman ; "The Place of Egypt in Prehistory" (Mem. présenté à l'Institut d'Egypte, T. 43). 1941.

(3) Baumgartel, E.T. ; "The Cultures of Prehistoric Egypt" 1947.

الرابعة بينما نستطيع الآن أن نسرد تاريخنا منذ أن سكن المصرى الأول وادى النيل حتى يومنا هذا . وهذه السلسلة الطويلة من الأحداث التاريخية والتطورات المختلفة التى مرت فيها الحضارة المصرية لا تكاد تنقطع بين أيدينا إلا مرات لا يتعدى عددها أصابع اليد الواحدة .

وهذه المراحل التى ذكرناها عن تاريخ الكشوف الأثرية فى مصر تكاد تتشابه مع المراحل التى مرت بها الكشوف الأثرية فى بقية مناطق الشرقين الأدنى والأوسط .

لقد كان فيما أتت به قصص التوراة عن بلاد ما بين النهرين وفلسطين وعن مجدهما القديم ما أثار تطلع الباحثين والمغامرين معاً . وبدأ اهتمام الأوروبيين بآثار بلاد ما بين النهرين ومحاولة قراءة الكتابة الاسفينية (المسمارية) بأنواعها المختلفة مجهودات فردية .

ولعل أول محاولة لوصف الآثار القائمة فوق سطح الأرض هى تلك التى قام بها القنصل البريطانى « ريتش » فى رحلاته المتعددة التى طاف إبانها مناطق العراق القديم فيما بين ١٨١١ و ١٨٢٠ ونشر نتائجها فى أكثر من كتاب(١) ظهر بعضها بعد وفاته .

أما محاولة قراءة الكتابة الاسفينية فقد بدأت قبل ذلك وهى ترجع إلى عام ١٧٦٥ حين قام العالم الهولندى Karsten Niebuhr بزيارة أطلال مدينة « برزوبوليس » ونسخ بعضاً من النصوص القديمة ثم تبعه الأب Abbé de Beauchamp عام ١٧٨٠ فوصف بعضاً من اللوحات الطمية المنقوشة بالخط الاسفينى والتى تداولتها يده أثناء إقامته فى بغداد ثم نجد العالم الألمانى Grôtefend نجح فى قراءة أسماء ثلاثة من الملوك التى وردت فى النصوص

(1) Rich. Claudius James, (appointed as British Resident in Baghdad in 1808).
A. "Memoirs on the Ruins of Babylon" London 1815.
B. "Second Memoirs on Babylon" London 1818.
C. "Narrative of a Residence in Koordutan and on the Site of Ancient Nineveh, with journal of a Voyage down the Tigris to Baghdad, and an account of a Visit to Shiraz and Persepolis" London 1836.

التى كان « نيبور » قد نشرها ولم يلبث أن تمكن من الوصول إلى قراءة ما يقرب من ثلث النصوص السالفة الذكر وتقدم عام ١٨٠٢ ببحث مستفيض عن قراءاته هذه إلى الأكاديمى الألمانية بجوتنجن التى رفضت قبوله ونشره وظل هذا البحث فى طى النسيان حتى نشر عام ١٨٩٣ لقيمته التاريخية فحسب (١) .

وإذا كان « جروتفند » قد فشل فى نشر نتائج قراءاته فنجد أن عالماً آخر يبدأ محاولات أخرى فى عام ١٨١٠ وهو « سير هنرى رولنسن » فيقوم بنقل نصوص « باهستان » التى نرجعها إلى عصر داريوس (٥١٦ ق . م) وهى نصوص نقشت على واجهة جبل عال على ارتفاع ما يقرب من ١٥٠ متراً . واعتمد « رولنسن » فى عمله المضنى هذا على صبى كردى كان عليه أن يبقى طوال يومه معلقاً بين السماء والأرض يعتمد بأصابع قدميه على شق بالجبل ويشد خصره بحبل يتأرجح به ليأخذ من « رولنسن » تارة أوراقاً بيضاء ليطبع عليها النقوش بطريقة الضغط ثم لا يلبث أن يعطيه إياها ليأخذ غيرها .

وتميز « رولنسن » بمعرفته لعدد من اللغات الشرقية يسرت له النجاح فى قراءة الفقرتين الأولى والثانية من نصوص باهستان التى كتبت باللغة الفارسية القديمة وبالخط الاسفينى ونشر نتائج بحثه فى عام ١٨٣٧ (٢) ثم نشر ترجمة كاملة للنص مع بعض الملاحظات القيمة عن قواعد اللغة عام ١٨٤٦ (٣) .

واستمر « رولنسن » فى أبحاثه من نصر إلى نصر حتى عام ١٨٥٧ حين أرسل إلى المتحف البريطانى ترجمة نص ورد على حجر اسطوانى الشكل من عصر الملك تيجلات ــ بلاتسزر الأول وهنا أراد رجال المتحف أن يتعرفوا على مدى صحة هذه الترجمة فأرسلوا بالنص إلى أكثر من عالم عرفوا بدراساتهم لهذه اللغة على أن يرسل كل منهم بترجمته إلى الجمعية الملكية للدراسات الأسيوية

---

(1) Parrot, André ; "Archaéologie Mésopotamienne : Les Etapes" Paris 1946.

(2) Rawlinson, Sir Henry Creswicke ; "Inscription at Behistun" Journal of the Royal Asiatic Society 1837 and 1839.

(3) Rawlinson, Sir Henry Creswicke ; "The Persian Cuneiform Inscription at Behistun" London 1846 (2 vols.).

واجتمعت لجنة مكونة من العلماء « ويلكنسون » و « جاردنر » و « ملمان » وغيرهم وقارنوا التراجم المختلفة وقد بلغت فى تشابهها حداً جعلهم يجهرون بأن جهود علماء اللغة قد نجحت تماماً فى قراءة الخط الاسفينى .

وفى الوقت الذى كانت مصر قد تخلصت من أدعياء البحث الأثرى أو ناهبى القبور فى منتصف القرن التاسع عشر نجد أن هذه المرحلة قد بدأت فى بلاد العراق على يد نفر من المغامرين .

وكان أشهر هؤلاء هو « بوتا » (١) الذى يعتبر أول من قام بأعمال الحفر والتنقيب فى بلاد العراق . عينته فرنسا قنصلا لها فى الموصل ويغلب على الظن أن تعيينه قد تأتى كنتيجة للاهتمام البالغ الذى تفشى بين العلماء الفرنسيين المستشرقين بآثار بلاد العراق وهو ذلك الاهتمام الذى نما بعد أن نشر « جيمس ريتش » كتابيه السالفى الذكر عن آثار بلاد ما بين النهرين .

بدأ « بوتا » حفائره فى مدينة نينوى (٢) عام ١٨٤٢ وتتكون هذه المدينة من عدة تلال أثرية أهمها تل « قيونجيك » وتل « النبى يونس » واتجه فى أول الأمر إلى التل الثانى إلا أنه اضطر أن يتحول إلى تل « قيونجيك » نظراً لأن « تل النبى يونس » كان يقوم على قمته مسجد إسلامى . ويبدو أن نتائج حفائره لم ترضه فهو كان يبحث عن التحف والنفائس ولم يلبث أن سمع بأخبار العثور على بعض التماثيل فى « خورساباد » إلى الشمال من « نينوى » فاستهوته هـــذه الأخبار وسارع إلى « خورساباد » عام ١٨٤٣ حيث عثر على بقايا قصر أشورى وأعلن على الملأ أنه وفق إلى أطلال مدينة نينوى القديمة (٣) . ولقد كان لهذا الكشف دوى عظيم فى فرنسا واضطرت الحكومة الفرنسية تحت ضغط

---

(١) Paul-Emile Botta.

(٢) كانت بلاد أشور تحوى ثلاث مدن كبرى شهرت فى التاريخ وهى : أشور ونمرود ونينوى . تقع الأولى على بعد ٥٠ كيلومتراً إلى الجنوب من الموصل والثانية على بعد ٣٥ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقى منها بينما نينوى تقع على شاطىء نهر الدجلة قبالة مدينة الموصل .

(٣) ولم تكن « خورساباد » فى حقيقة الأمر إلا مدينة « دور شاروكين » القديمة مركز الملك « سارجون الثانى » أحد ملوك آشور المهمين الذى عاش فيما بين عام ٧٢١ و ٧٠٥ ق . م وكان قصره هو ذلك المبنى الذى عثر عليه بوتا .

المستشرقين الفرنسيين أن ترصد مبلغاً من المال للصرف على نشاط « بوتا » فى العراق وصدرعام ١٨٤٩ كتاب ضخم من خمسة مجلدات [١] وصف فى الجزء الأول منه القصر المكتشف فى « خورساباد » وسجل فى الأجزاء الأربعة الأخرى رسوماً لمنطقة الحفر ولأجزاء المبنى من رسم الفنان Flandin الذى كان قد استدعاه لتسجيل الأثر ورسم أجزائه .

وفى نفس هذا الوقت كان « « ليارد » [٢] مبعوث المتحف البريطانى يحفر فى نمرود ووفق فيما بين ١٨٤٥ إلى ١٨٤٧ إلى الكشف عن قصور ملكية ثلاث : الأول للملك « أشور — ناصر — بعل » (٨٨٣ إلى ٨٥٩ ق . م). والثانى « لأشور أخى الدين » (٦٨٠ — ٦٦٩ ق .م) والثالث « لشالمنصر الثالث» (٨٥٨ — ٨٢٤) ولقد نشرت نتائج حفائره فى كتابين [٣] مقتنعاً أن نمرود هذه هى مدينة نينوى بالذات .

على أن التقدم السريع الذى أصابه العلماء فى حل رموز الكتابة الاسفينية فى ذلك الحين جعل « لايارد » يدرك أن « نمرود » ليست « نينوى » ولا نلبث أن نراه يحفر فى عام ١٨٤٩ فى منطقة نينوى نفسها أى فى تلى « النبى يونس » و « قيونجيك » وكان أهم كشوفه هو العثور عام ١٨٥١ على قصر « سنحريب » ومكتبته العامرة بآلاف اللوحات المكتوبة وقد عثر عليهما فى تل « قيونجيك ».

وكان من نتائج تنقيبات كل من « بوتا » و « لايارد » أن تدفقت التحف الأثرية فى المتحف البريطانى واللوفر وترتب على عرض النفائس التى أرسلها « لايارد » إلى المتحف البريطانى وذيوع مؤلفاته عنها أن منحته جامعة اكسفورد الدكتوراه وهو فى سن الحادية والثلاثين . ولكن هذا اللقب العلمى لم يخلع عليه صفة الباحث الأثرى . ويتضح أمر هذا التناقض إذا عرفنا الطريقة التى اتبعها فى عمله . لقد كتب يصف أعماله فى « نمرود » قائلا : إن هدفى هو استخراج أكبر عدد ممكن من القطع الفنية السليمة فى أقصر وقت ممكن وبأقل كلفة .

---

(1) Botta et Flandin ; "Monuments du Ninève" Paris 1849-50)

(2) Sir Austen Henry Layard.

(3) A.—Layard, A.H. "The Monuments of Nineveh" London 1849.
B.—Layard, A.H. "Nineveh and its Remains" London 1849.

والواقع أن أحداً من أثري القرن التاسع عشر لم يسلم من نقد أخلافه . فبرستد (Breasted) انتقد الطريقة التى اتبعها « لايارد » فى تنقيبه فى تل « قيونجيك » وقال عنها أنها تفتقر إلى الخبرة العلمية كما هاجم العالم الأمريكى « هيلبرشت » (Hilprecht) الطريقة التى تمت بها الكشوف فى بلاد ما بين النهرين قبل أن يشترك هو فى الحفائر التى قامت فى « نيبور » — فى حين هاجم « بدج » (Budge) « هيلبرشت » نفسه فيما قام به من نشاط فى حفائر « نيبور » بالذات وقال أنها تفتقر إلى كل مظهر للحفر العلمى .

وعلى كل حال يمكن أن نفسر هذا النقد المستمر لكل ممن اشتغل بالآثار ضد من سبقوه من العلماء بأنه دليل حيوية وانه كان باستمرار الدافع القوى الذى خطا بالعلم وبهذه الدراسات بعينها نحو الأمام . ويجب علينا فى نفس الوقت أن نعترف بأن أثريى القرن التاسع عشر كانوا يعملون فى أرض شبه بكر وبوسائل محدودة كما أنهم كانوا مضطرين أن ينتهجوا نهج « لايارد » باستخراج أكبر عدد ممكن من القطع الفنية السليمة فى أقصر وقت ممكن وبأقل كلفة حتى يشبعوا نهم المتاحف الأوروبية من ناحية وليرضوا الأثرياء الذين حرصوا على تكوين مجموعات أثرية خاصة . على أنه من المعروف أن أثريى بلاد العراق بالذات كانوا أكثر جناية على آثارها من أضرابهم الذين عملوا فى مصر . إذ حافظت رمال الصحراء المصرية وجفاف مناخها على آثار المصريين القدماء المطمورة فيها كما كفل البناء بالحجر الصلد مقابر مبانيهم بينما كان الأمر على عكس ذلك فى بلاد العراق مما كان يستلزم من أثرييها علماً كافياً بطرق وقاية الآثار والمحافظة عليها فى حين افتقر الرعيل الأول منهم إلى هذا العلم تماماً بحيث كثيراً ما كانت الآثار القيمة تتفتت وتتلاشى بمجرد تعرضها للهواء وأشعة الشمس تساوت فى ذلك الحوذات والأوانى النحاسية والأسلحة والمناظر الملونة على الجص فضلا عن المبانى المشيدة من اللبن والطوب المحروق .

وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر تحولت الكشوف الأثرية فى بلاد العراق إلى الجزء الجنوبى منها وكان فى ذلك خطوة موفقة بكشف حضارة السومريين ولعل سبب هذا الاهتمام يرجع إلى أن الدراسات اللغوية التى قام بها

« رولنسن » وبعض من زملائه انتهت إلى إثبات صلات واضحة بين اللغات الثلاث التى كتب بها « داريوس » حولياته وانتصاراته فى « بيهستون » وهى اللغة الفارسية القديمة واللغة العيلامية واللغة الأكدية . وأن الأخيرة هى أقدم اللغات الثلاث وأكثرها تعقيداً ومنها اشتقت العيلامية والفارسية وأن النقوش الأشورية التى أظهرتها كشوف « لايارد » الإنجليزى و « بوتا » الفرنسى قريبة هى الأخرى من اللغة « الأكدية » التى ثبت أنها أيضاً ذات أصل سامى قريب من اللغة العبرية والعربية ، غير أن اللغوى « هينكس » (Hinks) أكد أن البابليين أصحاب اللغة السامية لا يمكن أن يكونوا هم مبتدعى الكتابة الاسفينية ، ولابد أن تكون هذه الكتابة من نتاج شعب أقدم — فكان على الأثريين منذ ذلك الوقت أن يتعرفوا على هذا الشعب الأقدم .

فى عام ١٨٧٠ صرح عالم الآثار « أوبرت » (Oppert) بعد أن كشف النقاب عن بعض معالم مدينتى كش وبابل أن هذا الشعب هو شعب « سومر » . ثم استمرت الأعمال تجرى للكشف عن المناطق الجنوبية ووفق « تيلور » (Taylor) القنصل الإنجليزى فى البصرة إلى الكشف عن « أور » وكشف « لوفتوس » (Loftus) عن الورقاء موطن جلجمش السومرى ، على أن الفصل فى قضية الحضارة السابقة للبابلية يرجع إلى كشفين مهمين : أولهما ذلك النص الذى عثر عليه « رسام » [1] فى منطقة « أبى حبا » والذى يقص كيف أن الملك « نابونيد » [2] — وهو آخر ملوك بابل (من ٥٥٥ إلى ٥٣٨ ق . م) الذى هزمه كيروس الفارسى واستولى على بلاده — أراد أن يتحرى منشىء معبد شمش فحفر فيه إلى عمق ستة أمتار حتى وصل إلى حجر الأساس وتبين منه أن منشئه هو « نارامسين بن سارجون الأكدى » [3] .

---

(١) كان « رسام » عراقى من الموصل عمل فترة طويلة مع « لايارد » فى مناطق الحفر ثم مالبث رسام بعد أن تجنس بالجنسية الإنجليزية أن عمل بمفرده لحساب المتحف البريطانى — ولقد حذا حذو أستاذه فى طرق الحفر الذى لا يستهدف غير استخراج النفائس فى أقصر وقت وبأقل التكاليف .

(2) Scharff, A und Moortgat, A. ; "Aegypten und Vorderasien im Altertum" P. 453-55 (München 1950).

(٣) ولابد لنا أن نسجل هنا أن هذه كانت أول محاولة فى التاريخ لكشف أثرى .

أما الكشف الثانى المهم فقد كان ما عثر عليه « أرنست دى سارسيك » «Ernest de Sarzec» فى « تلو » من آثار فى حفائره التى قام بها فيما بين عام ١٨٧٧ و ١٩٠٠ إذ اتضح أنها « لجش » السوميرية وقد أخرج منها كنوزاً من تحف رائعة للفن السوميرى من بينها تلك التماثيل التى تمثل « جوديا » الحاكم السابع للجش . وفى آخر الأمر عثرت البعثة الأمريكية فى حفائرها منذ ١٨٩٠ إلى ١٩٠٠ فى « نيبور » على معبد الإله « انليل » أكبر مراكز الحج السوميرية كما عثرت هذه البعثة على ما يقرب من الخمسين ألف لوحة كتب أغلبها باللغة السوميرية وتضمنت من الأدب السوميرى ومن الحقائق التاريخية ما هو نتاج أكثر من عشرة قرون .

وكان القرن العشرون بالنسبة إلى الكشوف الأثرية فى بلاد العراق مثله فى ذلك مثل ما كان بالنسبة إلى مصر هو قرن الدراسات الخاصة بعصور فجر التاريخ . بدأته بعثة الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية Die Deutsche Orient Gesellschaft بداية مجيدة . وكان هدف رجال هذه الجمعية ينحصر فى العمل على إتمام كشف كامل لأطلال مدينة قديمة ، مع بحث قطاع من تل أثرى وذلك للتعرف على تتابع طبقاته ودراسة ما تحويه كل طبقة من المخلفات البشرية وأدوات حضارة إنسانها على حدة دراسة كاملة . لقد نفذ هذه الطريقة « والتر أندريه » «Walter Andrae» فى حفائره [1] التى قام بها للكشف عن مدينة « أشور » أول عاصمة للوطن الأشورى وبقى ينقب هناك من ١٩٠٣ إلى ١٩١٤ ، وبعد أن كشف عن معبد « عشتارته » نفذ إلى أساساته وبحث ما احتضنته الأرض من أسفله فعثر على أبنية أخرى انتهت فى آخر الأمر بمعبد عتيق يرجع إلى العصور الأولى من الحضارة السوميرية . فكان لهذا العمل أهميته الكبرى بالنسبة إلى تتبع فترات ظهور حضارة بلاد العراق القديم منذ أول عصورها ، كما أنه وضع الأسس الأولى

---

(1) Andrae, Walter ; "Das wiedererstandene Assur" (9. Sendschrift der Deutschen Orient Gesellschaft 1936).

التى قامت عليها الدراسات المقارنة للطبقات المتتابعة والتى تحوى آثاراً ترجع إلى عصور مختلفة .

وقامت فى نفس الوقت بعض البعثات الأخرى بكشوف فى مناطق مختلفة اتبع أصحابها طريقة الألمان العلمية فى البحث والتنقيب فكشف « بانكس » القنصل الأمريكى عن مدينة « اداب » القديمة (١)، كما نقب « كنج » باسم المتحف البريطانى فى « قيونجيك » وحفر « دى جنيواك » (de Genouillac) فى « كش » .

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى توافدت البعثات على بلاد العراق وزاد النشاط العلمى وكشف معول الحفار عن مناطق مختلفة من مراكز الحضارة السومبرية القديمة فعثر « هول » (Hall) على مدينة « العبيد » غربى « اور » ووفق إلى معبد صغير يعتبر بمثابة الأصل العتيق للأسلوب المعمارى الذى تطور إلى أن وصل إلى الأسلوب المتأخر للمعبد السومبرى المعروف باسم «زيجورات»(٢) كما أسهم « وولى » بنصيب وافر فى الكشف عن « اور » (٣) حيث عثر عام ١٩٢٦ على مقابر ملكية فاقت محتوياتها كل ما انتظره العلماء لدقتها وتقدم فنها وكان للكشف عن كنوزها من الوقع ما كان لاكتشاف كنوز « توت عنخ آمون » . وفى « العبيد » كشف « وولى » عن مبنى سجل على حجر الأساس فيه : أن الملك « أ ــ أنى ــ بدا » بن « مس ــ أنى ــ بدا » ملك « أور » هو الذى شيد معبد « نين ــ خورساج » . ونظراً لأن هذين الاسمين كان العلماء قد عرفوهما من قوائم الملوك . لذلك اعتبر هذا المعبد بمثابة أول مبنى عثر عليه الأثريون متصلا اتصالا وثيقاً بشخصيتين تاريخيتين (٤) .

---

(1) Banks, E.J. ; "Bismaya, or the Lost City of Adab" 1912.

(2) Hall, H.R. and Woolley, L. ; "Al-Ubaid" 1937.

(3) Woolley, L. "Ur of the Chaldeans" 1929.

(٤) قام « هول و « وولى » بنشر نتائج كشوفهما فى كل من « العبيد واور » فى كتاب كبير من ستة أجزاء اشترك فيها أكثر من عالم وهذه الأجزاء هى :

Vol. I Hall and Woolley "Al-Ubaid" 1937.
Vol. II Woolley "The Royal Cemetery" 1934, 2 volumes.
Vol. III Legrain "Archaic Seal Impressions" 1936.
Vol. IV. Gadd and Legrain "Royal Inscriptions' 1935 2 volumes.
Vol. V Borrows "Archaic Texts" 1935.
Vol. VI Woolley "The Ziggurat and its Surroundings" 1938.

وعلى نحو ما لعبت أنواع الفخار المصرى دورها فى توقيت فترات فجر التاريخ فى مصر ، كذلك لعبت أنواع الفخار فى بلاد العراق والطبقات التى وجدت فيها دوراً كبيراً فى توقيت عصور فجر التاريخ وتتابعها هناك .

ولقد أعلن فى مؤتمر المستشرقين الدولى الذى عقد فى « ليدن » عام ١٩٣١ أن بلاد العراق القديم مرت فى ثلاث فترات إبان عصر فجر التاريخ وهى :

(ا) « العبيد » وتؤرخ من ٤٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ ق . م .

(ب) « أوروك » وتؤرخ من ٣٥٠٠ إلى ٣٢٠٠ ق . م .

(ج) « جمدة نصر » وتؤرخ من ٣٢٠٠ إلى ٢٨٠٠ ق . م .

غير أن توالى الكشوف فى البلاد أدى إلى إضافة فترتين سابقتين : الأولى تعارف العلماء على تسميتها فترة « تل حلف »، والثانية وهى ما سماها مكتشفها « كامبل تومبسون » باسم « ما قبل الحلافية » — إلا أنه قد ظهر من كشوف السيد « فؤاد صفر » فى « تل حسونه » عام ١٩٣٤ (جنوبى نينوى (أن حضارتها مطابقة لما سمى بما قبل « تل الحلافية » — وبهذا أصبح من الميسور الآن تقسيم فترات فجر التاريخ فى بلاد العراق القديم إلى الحضارات الآتية :—

١ — حسونة ٢ — تل حلف ٣ — العبيـــد

٤ — أوروك ٥ — جمدة نصر .

٤ — « شليمان » والبحث عن « طروادة » :

لم تكن أصداء الكشوف فى مصر والعراق هى كل ما دوى فى القرن التاسع عشر ، وإنما كان لكشوف طروادة وجزر الأرخبيل دوى عظيم كذلك . ولقد شهدت هذه المنطقة منذ الربع الأول للقرن أبحاثاً مختلفة لفريق من الجيولوجيين والأثريين لها أهميتها ، غير أن الأثر الأكبر كان بلاشك للكشوف الهامة التى قام بها « هينرش شليمان » الذى يعتبره الكثيرون بمثابة المكتشف الأول لآثار عصر ما قبل تاريخ الاغريق .

وفى الواقع يعتبر « شليمان » أثرياً بالسليقة ، لم يذهب إلى الأناضول لكى يكتشف آثاراً يزود بها متحفاً من المتاحف أو ليزيد من ثروته أو لأنه

كان هاوياً يحب جمع الآثار ليزين بها قصره — لقد كان « شليمان » يبحث وراء هدف معين بالذات ألا وهو الكشف عن « طرواده » والعثور على بقاياها مهما كلفه ذلك من مشقة أو مال .

يصف شليمان فى مقدمة كتابه « دراسات أثرية » (١) الفترة الأولى من بحثه عن « طرواده » فيقول انه اتجه عام ١٨٦٨ إلى الشرق ليبحث عن حلمه الذى عاش معه منذ الطفولة أى عن « طرواده » فنزل فى قرية صغيرة اسمها « بونارباشى » (٢) اعتقد معظم العلماء فى ذلك الوقت أنها تقوم على أطلال المدينة القديمة وبنوا هؤلاء نظريتهم هذه على أساس أن سطوح منازلها تعج بأعشاش الطائر « اللقلق » (أى الوز العراقى) كما أن بها حتى الآن غديران (أو نبعان) ينطبق عليهما ما ورد فى « الالياذة » (٣) من وصف لمدينة طروادة والنبعين الذين ينسابا فيها أحدهما يحوى ماء ساخناً بينما الثانى مياهه باردة مثلجة .

ولكن « شليمان » لم يجد فى هذه القرية ضالته المنشودة إذ أنها تبعد عن الشاطىء بمسيرة ثلاث ساعات فى حين ذكر « هومير » عن أبطاله انهم كانوا يتنقلون أكثر من مرة فى النهار الواحد بين سفنهم وبين قلعة المدينة ، وضعف أمله تماماً عندما أراد زيارة النبعين السالفى الذكر فاذا به يجد ستة وثلاثين نبعاً عدها بنفسه ثم فوجىء بالمرشد الذى كان يلازمه يؤكد له أنه قد أخطأ فى العدد لأن هذا المكان به أربعون نبعاً وأن الناس يطلقون عليه اسم « كيرك جيوز » أى « الأربعون نبعاً » . ومع هذا كله حاول « شليمان » أن يتحقق مما ورد فى « الإلياذة » وأسرع بشراء « ترمومتر » وأخذ يختبر بنفسه درجة حرارة كل نبع فوجد أنها جميعاً متماثلة ولا تزيد درجة حرارتها عن السبعة عشر درجة غير هذا وذاك لاحظ أيضاً أن التل هناك لا يحوى قطعة واحدة من الفخار المهشم ولقد قرأ أن جميع المدن القديمة تترك وراءها أكواماً لا حصر لها من الفخار المهشم .

---

(١) Schliemann, Heinrich "Archaologische Forschungen" 1869.

(٢) «بونارباشى » قرية تقع على جبل « باليداغ » فى الجزء الشمالى الغربى من بلاد الأناضول عند مدخل البسفور .

(٣) هومير — الأنشودة الثانية والعشرين من الالياذة من ١٤٧ إلى ١٥٢ .

أقول قرأ لأن « شليمان » لم يكن من رجال الآثار أو التاريخ بل لم يكن له علاقة ما بالعلم أو بالعلماء . ولد عام ١٨٢٢ من أسرة فقيرة وما كاد يتعلم القراءة والكتابة حتى شغف بحب الالياذة والأوديسية . وفى العاشرة من عمره قدم إلى أبيه كهدية فى عيد ميلاد المسيح مقالة كتبت عن أهم أحداث حروب طروادة كما أنه كان يقبل بكل ما فيه من قوة على قراءة ما يقع تحت يده من مؤلفات عن هذه الفترة . وخرج من المدرسة فى سن الرابعة عشر ولم يلبث أن التحق بحانوت بقالة فى مدينة « فورتنبورج » ثم بدأت حياته تمر بصعاب كثيرة وسئم المعيشة فى بلده وهاجر عام ١٨٤١ إلى هامبورج وتسلل فى أحد الأيام إلى سفينة راسية بالميناء ولكن عاصفة هوجاء هبت فى عرض البحر بعد إبحار السفينة وأغرقتها ونجا « شليمان » بأعجوبة ولم يلبث أن حصل على وظيفة صغيرة فى أحد متاجر « امستردام » التى كان قد انتقل اليها لعله يحصل على عمل فيها . وبدأ يتصل بتجار من مختلف الشعوب يتحدثون بلغات متباينة فهوى دراسة اللغات ووجد نفسه يتعلم اللغة بعد الأخرى بسهولة واضحة فأتقن اللغات الهولندية والاسبانية والإيطالية والبرتغالية فى فترة وجيزة لم تزد عن ستة أسابيع لكل منها فساعدته هذه الموهبة على التقدم فى عمله وعلى أن يرقى سلم المجد بسرعة فائقة فنراه فى عام ١٨٤٧ ولم يكد يبلغ الخامسة والعشرين من عمره وقد أسس بيتاً تجارياً لنفسه فزادت ثروته وتضخمت مسئولياته ولكنه فى هذا الخضم من الأحداث لم ينس هوايته وهى « هومير » وما قاله عن « طرواده » . وفى عام ١٨٥٠ سافر إلى أمريكا الشمالية وبلغ فى مركزه التجارى شأواً كبيراً جعل رئيس الجمهورية يدعوه إلى زيارته وفى نفس الوقت أرسل من أمريكا إلى أصدقائه خطابات يحدثهم فيها عن أوديسية هومير وإلياذته وعن تفكيره فى استغلال ثروته الكبيرة فى البحث عن طرواده والتعرف على المكان الذى كان مسرحاً لاحداث عصرها وأن حديث هومير هذا ليس بخرافة بل هو حقيقة واقعة ولكن أعماله الكثيرة ومستولياته المتعددة كانت تبعده عن تحقيق أمنيته هذه . وفى عام ١٨٥٥ رست سفينتان تحملان باسمه شحنتين كاملتين من الشاى فى ميناء « ميمل » وإذا بحريق يشب ويأتى على كل ما تحويه مخازن هذا المرفأ

من سلع مختلفة ولم ينج من الحريق سوى سفينتى شليمان بشحنتيهما، وكان فى ذلك ما جعله مليونيراً فاحش الثراء . وأخيراً فى عام ١٨٦٤ وصلت ثروته حداً جعله يفكر فى تصفية أعماله والعمل على تحقيق أمنيته الكبرى تلك الأمنية التى لازمته منذ طفولته والتى أخذت تهيمن على مشاعره ألا وهى البحث عن طرواده .

هذا هو شليمان الذى وصل إلى « بوناريا شى » وفى يمينه ثروة لا حد لها وفى يساره نسخة من الالياذة والأوديسية لهوميروفى قلبه إيمان عميق أنه سيحقق أحلامه وسيعثر على ضالته المنشودة « طرواده » .

إذن كانت المقارنات التى يقيمها « شليمان » بين ما ذكر عن أوصاف لمدينة طرواده فى الالياذة وبين ما رآه فى طبيعة قرية « بوناريا شى » هى التى جعلته ينصرف عنها ويتجول فى المناطق المتاخمة ولم يلبث أن وجد ضالته المنشودة فى « حيسارليك » التى تبعد عن قرية « بوناريا شى » بمسيرة ساعتين ونصف إلى الشمال والتى لا تبعد عن الشاطىء بأكثر من ساعة واحدة .

ومن بين المظاهر التى رجحت كفة «حيسارليك » عند شليمان أنها حوت تلا عالياً قمته مسطحة وتكاد تكون مربعة ويبلغ طول ضلعها ٢٣٣ متراً وأن هذا التل ينحدر بميل متدرج حتى الشاطىء ثم وجد بعد التجربة أن مطاردة « اخيل » « لهيكتور » التى دار الإثنان إبانها ثلاث مرات حول المدينة يمكن أن تحدث بسهولة، إذ أنهما فى هذه الحالة يكونان قد جريا ما يقرب من خمسة عشر كيلومتراً وهو ما يستطيعه أى محارب فى مقتبل العمر . أما عن النبعين المائيين فقد عرف أن فى الإمكان اختفاء مثل هذه الينابيع فى أى منطقة بركانية.

استغرقت أبحاث « شليمان » الاستطلاعية أكثر من سنتين ولم يبدأ حفائره فى « حيسارليك » إلا فى ابريل عام ١٨٧٠ ومرت كشوفه فيها فى مراحل أربعة توزعت بين عام ١٨٧٠ و ١٨٩٠! وكانت نتائج كشوفه ترسل بالبرق إلى ملوك أوروبا وتنشر يوماً بيوم فى جميع الصحف السيارة كما كانت تقابل بشغف بالغ من جميع الطبقات .

سار شليمان فى حفائره على أساس استقراء ما تحويه الطبقات المتتالية

من مخلفات بشرية واهتدى إلى وجود سبع طبقات حوت كل منها أطلالا لمدينة قديمة واعتبر الثانية منها لأطلال « طروادة » الهوميرية أو قلعة « بريام » وعثر فيها على كنوز أعتقد أنها كنوز « بريام » بالذات، كما وجد أن هذه المدينة القديمة التى احتوتها الطبقة الثانية كانت محصنة تحصيناً قوياً ولها تجارة واسعة استخدمت فيها الذهب والفضة والعاج . على أنه بعد موت شليمان بثلاثة أعوام تبين مساعده العلامة « دوربفيلد » (أى عام ١٨٩٣) أن طروادة الهوميرية هى المدينة التى احتوتها الطبقة السادسة . كما استطاع بعد ذلك أن يقيم تأريخاً كاملا لكل طبقات « حيسارليك » التى وصلت معه إلى تسع طبقات ولا يزال هذا التأريخ يعتبر الدعامة التى يقوم عليه تأريخ حضارات أوروبا (١) . ولقد سار فيه على النحو الآتى :—

طروادة ١	من ٣٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ ق . م
طروادة ٢	من ٢٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ ق . م
طروادة ٣ — ٤ — ٥	من ٢٠٠٠ إلى ١٥٠٠ ق . م
طروادة ٦ (الهوميرية)	من ١٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ق . م
طروادة ٧	من ١٠٠٠ إلى ٧٠٠ ق . م
طروادة ٨	من ٧٠٠ ق . م إلى السنة الأولى ميلادية
طروادة ٩	من السنة الأولى ميلادية إلى ٥٠٠ ميلادية

ونحن لانشك مطلقاً فى أن « شليمان » بطريقته الفذة فى حفائره استطاع ليس فقط الكشف عن طروادة، بل تمكن أيضاً من أن يظهر لها تاريخاً حضرياً طويلا وأصولا ضاربة فى القدم .

ولم يقتصر شليمان على حفائره فى حيسارليك بل حفر أيضاً فى « ميسينا » فيما بين عام ١٨٧٤ وعام ١٨٧٦ وكان أيضاً يبحث عن أهداف واضحة تأثر بها من قراءاته فى هومير إذ ذهب إلى « ميسينا » ليعثر على مقبرتى « أجاممنون » و « كليتمنسترا » مؤكداً أنهما لا يقعان خارج القلعة بل هما فى وسطها ولقد عثر عليهما وهما من الطراز المبنى على هيئة « خلية النحل » (٢) وكشف فيهما

(1) Dorpfeld, W. "Troja und Illion" (Athen 1902.)
(2) Beehive Jombs

على كنوز هائلة . كما عثر بالقرب من « بوابة الأسدين » على مقابر من الطراز الذى يتكون من بئر عميقة تتسع عند قاعها على هيئة حجرة تحوى الجثة (١) ولقد بلغ تأثره بالمراجع القديمة أنه قد قرأ فى « باوزانياس » أن هناك خمساً من تلك المقابر فلم يكد يعثر على الخامسة منها حتى أوقف العمل بينما كانت هناك ست مقابر وعثر بالفعل على المقبرة السادسة بعد أن ترك شليمان منطقة الحفر . وكانت الكنوز التى عثر عليها فى هذه المقابر مثيرة وفاقت كنوز « بريام » إذ تضمنت أقداحاً من الذهب والفضة وسيوفاً مطعمة بالذهب وقلائد وخواتم وأنواع أخرى من الحلى الذهبية التى كانت ترشق بملابس الموتى وأقنعة ذهبية .

وكشف شليمان عام ١٨٨٠ على كنز « مينياس » فى « أرخومينوس » كما حفر فى عام ١٨٨٤ — ١٨٨٥ وكشف عن قصر « تيرنز » . ولقد كان باستمرار يعتقد أن كشوفه سواء تلك المقابر الخمسة أو مقبرتى « أجاممنون » و « كليتمنسترا » أو كنز « مينياس » فكلها ترجع إلى عصر هومير (٢) .

ولقد تعددت الآراء إزاء وسائل شليمان وكشوفه فبينما كان البعض يطعن فى إرجاع هذه الكشوف إلى العصر الهوميرى مؤكداً أنها ترجع إلى العصر المسيحى (٣) نجد أن البعض الآخر قد اقتنع بنظريته (٤) مشيداً بالأسس الوطيدة التى ابتدعها « شليمان » للبحث الأثرى العلمى والتى يمكن أن تطبق فى أى منطقة أثرية أخرى . وعلى كل حال من الواجب علينا ، إنصافاً لهذا الرجل الفذ ، أن نقسم نشاطه فى أعمال التنقيب إلى فترتين :—

---

(1) Shaft Graves

(٢) لقد كان شليمان ينشر نتائج تنقيباته بسرعة فائقة ولعل أعماله التجارية التى انغمس فيها إبان الطور الأول من حياته هى التى أكسبته هذه السرعة فى النشر فتراه ينشر الكتب الآتية التى ظهرت مباشرة بعد الانتهاء من الحفر :

A. "Trojan Antiquities" 1874 B. "Mycenae" 1876.

C. "Illios" 1880. D. "Troja" 1884. E. "Orchomenos" 1887.

(٣) هناك عالم اسمه « كورتيوس » (Curtius) أكد أن أحد الأقنعة التى عثر عليها « شليمان » فى مقابر « ميسينا » كانت صورة للسيد المسيح عليه السلام .

(4) Casson, "The Descovery of Man" 1939.

الأولى من ١٨٧٠ إلى ١٨٨٢ والثانية من ١٨٨٢ إلى ١٨٩٠ أى إلى موته .
ونحن لا نشك أن الفترة الأولى قد ساد فيها حب الكشف الممزوج بالمغامرة ولم يستطع شليمان أن ينظم شئونه ويقيم أبحاثه على أسس علمية إذ بقى يحفر فى « حيسارليك » من ١٨٧٠ إلى ١٨٧٣ بمفرده لا يعاونه فى عمله سوى زوجته اليونانية ، ثم من ١٨٧٤ — ١٨٧٦ قام بمساعدته بعض من اليونانيين الذين شعروا بغصة نحوه ولم يتعاونوا معه إلا تعاوناً سطحياً ثم فى عام ١٨٧٩ عاونه رجلان هما « بيرنوف » و « فيرشوف » وكانا هما فى حاجة إلى من يلقنهما أسس الحفر العلمى .

بينما فى الفترة الثانية التى تبدأ من عام ١٨٨٢ نراه يفوز لمساعدته برجل عالم مدرب هو « دوربفيلد » الذى امتازت أعماله بدقة العالم وحرصه على تدوين كل شىء والذى استطاع بخبرته كمهندس أن يكشف الطبقات على أساس استخدام القطاعات الواضحة .

على أية حال فليس من شك فى أن كشوف « شليمان » قد هيأت الفرصة لدراسة عصور فجر التاريخ للحضارة الإغريقية — تلك الدراسة التى أتمتها بعثة المدرسة الإنجليزية بأثينا «The British School at Athen» فحفر باسمها « سير سيسيل سميث » عام ١٨٩٤ — ١٨٩٥ فى منطقة « فيلاكونى » الواقعة على الشاطىء الشرقى لميلوس واتبع نفس الطريقة العلمية التى اتبعها «شليمان» فى فترته الثانية فى حفائر « حيسارليك » بدراسة محتويات الطبقات . فاتضحت له صلة طبقتها الثانية بحضارة «طروادة الثانية »بينما عثر فى الطبقة الثالثة على مساكن من طراز اليابسة الإغريقية يحتمل انتماؤها إلى عصر حضارة ما قبل المسينية .

٥ — البحث عن أصول الحضارة الإغريقية :

فى نفس الوقت قام المتحف البريطانى بحفائر واسعة فى قبرص دللت على وجود آثار ترجع إلى العصر البرونزى الأول ولها بعض الصلة بحضارة طروادة الثانية وإن كانت قد اتخذت لنفسها اتجاهاً مخالفاً (١) . ولقد اتجه

(1) Murray, Smith and Walters ; "Excavations at Cyprus" 1900.

الترجيح إذ ذاك إلى أنه ليس من الممكن أن تقتصر الحضارة المسينية على جزر الأرخبيل وقبرص دون بلاد الاغريق ، ولقد حققت الكشوف فيما بعد هذا الترجيح .

ولقد تركزت أعمال البحث فى بداية القرن العشرين فى تتبع أصول الحضارة المسينية التى كشف عنها « شليمان » ومن أتوا بعده . وكان السؤال :— هل كانت هذه الحضارة من إنتاج بلاد الاغريق ذاتها أم وفدت عليها من الخارج ؟ وإذا كانت أصول هذه الحضارة وفدت من الخارج فهل أتت من آسيا الصغرى أم من كريت ؟

ولقد اتجهت الأنظار فى بادىء الأمر إلى كريت التى اعتبرها « شليمان » الموطن الأول للحضارة الاغريقية . ولقد بلغ من تشبع الباحث « سير أرثر إيفانس » بهذا الرأى (١) أنه وقف فى عام ١٨٩٦ فى ليفربول بمناسبة افتتاح دورة اجتماع قسم دراسة الإنسان بالجمعية البريطانية معلناً رأيه أن كريت هى الموطن الأول الحقيقى للحضارة الاغريقية إذ ظهر فيها ذلك الإنسان الأول الذى انتشر فى كل أرجاء الوطن الاغريقى يتحدث نفس اللغة ويهدف إلى الحرية والعزة والكرامة ثم قال : « إن كريت اليوم تقف شامخة برأسها ضد المستعمر الذى أتاها من آسيا » ولم تأت سنة ١٨٩٨ حتى تعاونت الدول الغربية على إعطاء كريت استقلالها وإنهاء احتلال تركيا لها بعد أن أتاحت لها آثارها تلك السمعة العريضة .

وهكذا استطاع « ايفانس » أن يحظى بالإذن بالحفر فى كريت عام ١٨٩٩ واختار منطقة « كفالا » ولم تمر تسعة أسابيع على بدء الحفر حتى أكمل « ايفانس » الكشف عن مبنى عتيق يرجع إلى عصور فجر التاريخ أطلق عليه اسم قصر « مينوس » وتمكن بعد ذلك من أن يقيم نظرية أثبت بها أن كريت قد حظت بحضارة متقدمة هى « الحضارة المينوية » (٢) وانها سابقة للحضارة الميسينية .

---

(1) Evans, Sir Arthur "Cretan Pictographs" 1894.

(٢) سمى « ايڤانس » هذه الحضارة « بالمينوبة » نسبة إلى « مينوس » وهو صاحب تلك الشخصية الكريتية التقليدية التى قامت بوضع « القوانين » التى سارت عليها البلاد .

وكشف « ايفانس » فى « كنوسوس » عن حضارة تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث [1] إذ عثر على آثارها تحت أقدم مستويات العصر البرونزى بما يقرب من مترين ونصف . ولقد اهتم العلماء بهذه الكشوف لروعتها الفنية ولعظمة أسلوبها المعمارى .

لم يقابل « ايفانس » فى القرن العشرين بمثل ما قوبل به « شليمان » من نقد مر فى أواخر القرن التاسع عشر . ويرجع ذلك إلى أن « ايفانس » كان عالماً متعمقاً فى الدراسات الأثرية من قبل أن يبدأ العمل كما كان خبيراً بطرق البحث . ولقد قسم « ايفانس » حضارة كريت إلى فترات ثلاثة : — المينوية المبكرة والوسطى والحديدة ثم قسم كل فترة منها إلى ثلاثة عهود . كما حاول ربط هذه الفترات بما يقابلها من عصور مصر الفرعونية على أساس بعض القطع التى لا نشك فى أنها مصرية الصناعة والتى عثر عليها فى « كنوسوس » ووجود بعض أوان مينوية فى مقابر مصرية فضلا عن كثرة ظهورها مرسومة على جدران المقابر المصرية — حقيقة غالى « ايفانس » فى تأريخ حضارات كريت إذ دفع بالعصر الحجرى الحديث إلى الفترة ما بين ١٢ ألفاً و ١٠ آلاف ق . م وأرخ الحضارة المينوية المبكرة فيما بين ٣٤٠٠ إلى ٢١٠٠ ق. م فى حين أن الأبحاث الحديثة تحتم تعديل هذا التأريخ بحيث يصبح العصر الحجرى الحديث حوالى عام ٤٠٠٠ق.م والحضارة المينوية المبكرة حوالى ٣١٠٠إلى ٢٧٠٠ق . م والحضارة المينوية الوسطى حوالى ٢٠٠٠ ق . م . ولا يزال العلماء حتى الآن يبحثون فى لغة هذه الحضارة والأصل الذى صدرت عنه فضلا عن البحث فى منشأ الحضارة المينوية ذاتها والأصل الذى نبعت منه .

٦ — الكشوف الأثرية فى بلاد الأناضول :

لقد كانت بلاد الأناضول هى الأخرى مركزاً لنشاط أثرى منذ أوائل القرن الثامن عشر هدفه البحث عن أصل سكان هذه البلاد وهل هم الحيثيون

---

(١) لقد كان العالم الغربى متشوق إلى سماع أخبار كشوف « ايفانس » فى كريت خاصة بعد أن هدأت أخبار كشوف شليمان فى بلاد اليونان . ولقد صدرت عدة كتب عن هذه الكشوف أهمها :

Borrow, R.M. "The Descoveries in Crete and their bearing on the History of Ancient Civilisation" 1907.

Evans, Sir Arthur ; "The Palace of Minos at Knossos" 4 vols. 1921-1935.

الذين ذكرهم التوراة ولعل أول ما وصل إلى معرفتنا عن الحيثيين كان ذلك النقش الذى عثر عليه « جان أوتر » فى « ابريز » فى جنوب « كپادوشـــيا » فى عام ١٧٣٦ كما أن « بورخاردت » كشف عام ١٨١٢ عن واحد من نقوش « هاماث » . ولكن هذه الكشوف وأخرى غيرها لم تكن قد جذبت أنظار العلماء فى ذلك الوقت وبقى الحال هكذا حتى عام ١٨٦٠ حين كشف « جورج بيروت » فى « بوغاز كوى » أطلالا لمدينة واسعة امتازت بتحصيناتها المنيعة وعثر فيها على تماثيل تخالف فى أسلوبها الفنى كل ما عرفه العالم من تماثيل القدماء التى ظهرت فى مصر أو بلاد العراق أو فى اليونان . ومنذ ذلك الوقت دخلت بلاد الأناضول فى محيط الأبحاث الأثرية وسلط العلماء عليها الأنوار وأخذت البعثات تذهب إليها للقيام بأعمال الحفر والتنقيب للكشف عن ماضيها وعن أصل سكانها القدماء خاصة بعد أن قرر « بيروت » بأن التماثيل التى عثر عليها فى « بوغاز كيوى » هى صناعة لفنانين لانعرف عنهم شيئاً كما أن «بورتن» اعترف بأن نقوش « هامات » لا يمكن قراءتها أو فهم معانيها (١) .

عرف العالم لأول مرة أن بلاد الأناضول هى الموطن الأصلى لشعب « الحيثيين» الذين ذكرتهم التوراة ــعندما اقترح « رايت » (وهو من رجال التبشير الذين كانوا يجوبون الشرق الأدنى والذى كان فى دمشق فى ذلك الوقت) أن الفنانين الذين قاموا بصنع تماثيل « بوغاز كيوى » وأن النقوش المعروفة باسم « هامات » هى من إنتاج شعب الحيثيين (٢) ثم ظهر بعد ذلك كتاب آخر لأستاذ الدراسات الأسيوية فى اكسفورد « سايس » حاول فيه أن يبرز كل ما عثر عليه المنقبون من آثار لهؤلاء الحيثيين(٣) .

وكان القرن العشرون هو قرن الكشف الحقيقى فى بلاد الأناضول إذ تكونت بعثة علمية من علماء ألمان وأتراك فى عام ١٩٠٦ تحت إشراف « هوجو فينكلر » وأخذت تكشف عن المنطقة التى كان « بيروت » عام ١٨٦١ قد عثر

---

(1) Burton, Richard ; "Unexplored Syria" 1872.

(2) Dr. Wright, W. ; "The Empire of the Hittites" 1884.

(3) Sayce, A.H. ; "The Hittites, the Story of a Forgotten Empire" 1888.

عليها فى « بوغاز كيوى » . وتمكنت هذه البعثة بأبحاثها أن تثبت بأن هـــذه المدينة هى « خاتوساس » عاصمة دولة الحيثيين كما أنها عثرت على آلاف من الألواح تضمنت مراسلات الشئون الخارجية للدولة فيما بين ١٣٥٠ و١٣٠٠ق.م وتناولت المصريين والبابليين والقبرصيين كما ذكرت ذلك الشعب الذى سكن الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى والذى نتعارف على تسميته الآن باسم الآخيين. وهذه الذخيرة الهائلة من النصوص هى التى دفعت بالدراسات اللغوية إلى الأمام بعد أن تمكن « هيروزنى » من التعرف على مفتاح هذه اللغة ووصل إلى الكثير من فهم ألغازها (١) ولم تحل سنة ١٩٢٢ حتى أصبحنا على دراية كاملة بما حوته هذه النصوص السالفة الذكر (٢) .

وفى نفس الوقت أخذ بعض العلماء يحفرون فى مناطق أخرى من بلاد الأناضول فنقب « فون لوشان » الألمانى فى منطقة « زنجرلى » (٣) كما قام « جارستنج » بحفائر واسعة فى « ساكاجوزى » (٤) استمرت أكثر من أربعين عاماً بدأت منذ عام ١٩٠٧ وبدأت البعثة التى أرسلها المتحف البريطانى للبحث فى منطقة « قرقاميش » التى تعتبر من المراكز الجنوبية للحضارة الحيثية واشترك فى البحث كل من « هوجارت » و « لورنس » و « وولى » (٥) .

وكدأب الأثريين ، لا يبلغون طبقة حتى ينقبوا فيما وراءها . اتجه بحثهم بعد التعرف على حضارة الحيثيين إلى البحث عما سبقها أو مهد لها من حضارات ولقد اتخذ بحثهم ذاك مراحل متعددة وخاصة بعد أن كشف « شانتر » (٦) عام ١٨٩٣ عن نوع متميز من فخار ملون فى « اورثا هايوك » أطلق عليه اسم

---

(1) Hrozny, Friedrich ; "Die Sprache der Hethiter" 1917.

(2) Contenau, G. ; "Eléments de Bibliographie Hittite" 1922.

(3) Cowley, A.E. ; "The Hettites 1920.

(4) Garstang' J. ; "Hittites" 1929.

(5) Wooley, Lawrence and Hogarth ; "Carchemish' ; Report on the Excavations at Djerabis" 1914-1921.

(6) Chantre "Recherches, Archéologiques dans l'Asie Occidentale : Mission en Cappadoce" 1898.

الفخار « الكابادوكى » قارنه « مايرز » عام ١٩٠٣ بفخار قبرص وصقلية وتساليا الذى يرجع إلى العصرالبرونزى ثم فى آخر الأمر نجد أن « جارستنج » يخرج علينا بتأريخ لعصور فجر التاريخ فى الأناضول أقامه على أساس ما عثر عليه من فخار فى حفائر « ساكاجوزى » وانتهى إلى تقسيمه إلى أربع فترات(١) :

١ — العصر الحجرى الحديث المبكر .

٢ — العصر الحجرى الحديث المتأخر .

٣ — عصر الفخار الملون المبكر .

٤ — عصر الفخار الملون المتأخر .

وهو يقارن فخار العصر الحجرى الحديث الذى يتميز بلونه الأسود وببعض الزخارف المحفورة والملونة باللون الأبيض بما يماثله من فخار طروادة وكريت بينما يقارن الفخار الملون وخاصة فى عصره المبكر بما يماثله من فخار « سوسة » فى إيران و « أناو » فى « التركستان » .

على أن المعنيين بدراسات فجر التاريخ فى الأناضول ظلوا يتطلعون إلى كشف أثرى فى وسط البلاد أوفى شرقها يقارن بأعمال « شليمان » و« دوربفيلد » فى طروادة . ولقد تكفلت بتحقيق هذا الحدث بعثة معهد شيكاغو للدراسات الشرقية التى بدأت تنقيباتها عام ١٩٢٦ ونجحت فى تسجيل نحو من ٣٠٠ موضع أثرى جديد على أن أهم ما يذكر للقائمين بهذه التنقيبات وعلى رأسهم كل من « شميدت » و « فون — در — أوستن » هو قيامهم بكشف علمي دقيق فى تل « أليشار » الذى يقع إلى الجنوب الشرقى من أنقره بما يقرب من ١٢٨ ميلا . وكان هذا التل يرتفع إلى ما يزيد عن ثلاثين متراً وبذلك هيأ فرصة نادرة لتتبع طبقاته ودراسة محتويات كل طبقة بعناية ودقة . ولقد قام كل من « شميدت » و « فون — در — أوستن » بهذا العمل بطريقة تدعو إلى الدهشة والإعجاب (٢) وانتهت أبحاثهما إلى تمييز أربع طبقات حفرية :

---

(1) Garstang, J. "The Land of the Hettites" 1910.

(2) Von der Osten and Schmidt ; "The Alishar Huyuk Excavations" 1927-1932 (Oriental Institut Publications, 8 vols. 1930-37).

١ ــ « أليشار » (ا) وهى تعادل عصر بداية استعمال المعادن حوالى ٤٠٠٠ ق . م .

٢ ــ « أليشار » (ب) وهى تمثل عصر استعمال النحاس وتؤرخ بحوالى ٣٠٠٠ ق . م .

٣ ــ « أليشار » (جـ) وهى تمثل بواكير عصر استعمال البرونز وتؤرخ بحوالى ٢٤٠٠ ق . م .

٤ ــ « أليشار » (د) وهى تعاصر قيام الدولة الحيثية وتؤرخ بحوالى ٢٠٠٠ ق . م .

وشارك الأتراك فى البحث الأثرى فاضطلع « حميد زبير كوزاى » مدير الآثار فى تركيا بحفائر فى منطقة « الاكا هيوك » [1] التى تبعد بما يقرب من ٦٠ كيلومتراً إلى الشمال من « بوغاز كيوى » ولقد عثر فى أدنى مستوياتها على حضارة تمثل عصر بداية المعادن وتقارن بحضارة « أليشار » (ا) كما كشف عن مدافن اعتبرها معاصرة للعصر النحاسى (حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد) بلغ عددها ثلاث عشرة مقبرة يعتقد أنها لأفراد أسرة ملكية وضعت جثة كل منهم فى آنية كبيرة وعثر فى كل مقبرة على أنواع من الحلى بلغت من الثراء وأسلوب الصناعة ما يجعلها تقارن بمقابر ملوك « أور » فى بلاد العراق[2] .

ونشط التنقيب فى العشرين سنة الأخيرة فى جنوب شرق الأناضول وتركز البحث فى ثلاث مناطق :

١ ــ منطقة « مرسين » فى سهل « كليكيا » حيث حفر « جارستنج » عام ١٩٣٦ ــ ١٩٣٧ وتمكن من أن يحقق الكثير من حضارات عصور فجر التاريخ لبلاد الأناضول [3] ولقد ساعده فى تأريخه أن التل حوى ست عشرة

---

(1) Arik, R.O. ; "Les Fouilles d'Alaca Hoyuk" (Rapport préliminaire sur les traveaux en 1935 ; Publications de la Soc. d'Hist. Turque, Ankara 1937 .

(2) Kosay, Dr. Hamit Zubeyr ; London Illustrated News July 21th, 1945, P. 78 ff.

(3) Garstang, J. ; "Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology" 1937-1940.

طبقة رد الطبقات الخمسة من ١٢ إلى ١٦ إلى عصر استعمال المعادن (العصر الكاكليولينى) بحيث تعاصر الطبقة الثانية عشر عام ٣٠٠٠ ق . م بينما الطبقة السادسة عشر وهى تعاصر حضارة « تل حلف » فى العراق وترجع إلى حوالى عام ٣٦٠٠ ق . م .

غير هذا فقد عثر « جارستنج » أسفل الطبقة السادسة عشر على مخلفات بشرية تمت إلى حضارة تسبق حضارة « تل حلف » وهى تمثل حضارة العصر الحجرى الحديث [١] وقد دفع بها « بوركيت » إلى ٥٥٠٠ ق . م .

٢ ــ منطقة « اتخانا ــ الالاخ » بالقرب من مدينة حلب ولقد تبين فيها « وولى » (١٩٤٦ ــ ١٩٤٧) أقدم العواصم الحيثية بدأ عمرانها حوالى ٢٠٠٠ق.م ودمرت حوالى ١٢٠٠ ق . م ومرت فيما بين ذلك بتسع مراحل متميزة من العمران [٢] ومما يدعو إلى الدهشة أن « الالاخ » لم تحو ما يدل على أنها شيدت قبل العصر النحاسى بينما عثر « وولى » فى تل صغير يبعد ٣ كيلومترات إلى الغرب منها على مخلفات ترجع إلى العصر « الكالكيوليتى » وتقارن بحضارة « مرسين ».

٣ ــ منطقة « كاراتبة » التى تقع عند سفح سلسلة جبال الطوروس حيث يقتحم نهر « جيهان» مجراه ليصل إلى سهل أذنه ولقد تبين أنها تحوى مدينة حيثية تذكرها النصوص باسم « دانونا » كما دلت آثارها على وجود تأثيرات مختلفة ايجية ولذلك يرجح البعض أنها هى مدينة « دانوى » التى تحالفت مع « الآخيين » فى « طروادة » .

والصورة الأخيرة التى كونها « فون ــ در ــ أوستن » عن حضارة فجر تاريخ الأناضول أنه فى عصر بداية استعمال المعادن (العصر الكالكيوليتى) يتضح لها شقان : شق فى غرب الأناضول ويقابل « طروادة الأولى » وينتمى إلى حضارات البلقان والآخر فى وسط الأناضول تمثله حضارة « أليشار » (ا) ويقرن بحضارات الأرض السوداء .

---

(1) Burkitt, M.C. , "The Earlier Cultures at Mersin" in : Liverpool Annals of Arch. and Anthrop" 1939.

(2) Scharfi, A. und Moortgat, A. ; "Aegypren und Vorder asien im Altertum" Muenchen 1950 Seite 374 ff.

وللأناضول فى تطور حضاراتها إبان العصر النحاسى نفس الثنائية ويعتقد « فون ــ در ــ أوستن » أنها تمثل تطوراً رتيباً فى غرب الأناضول قام على أساس حضارتها فى « العصر الكالكيوليتى » بينما فى شرق الأناضول تعتبر حضارة العصر النحاسى حضارة جديدة لا تتصل بما سبقها .

٧ ــ الكشوف الأثرية فى فلسطين وسوريا :

لقد كانت البحوث الأثرية التى تمت فى فلسطين تقوم على تحقيق ما ورد فى التوراة عن مدن هذه المنطقة . إلا أن العلم الحديث دفع بالعلماء إلى استقصاء ما كانت عليه حضارة الإنسان الأول الذى سكن هذه البلاد فى عصور فجر التاريخ ولإقامة المقارنات بين تطور حضارته وما حدث فى مصر وبلاد العراق فى عهود معاصرة .

ولقد بدأت الأبحاث العلمية فى فلسطين على أثر تكوين « الجمعية الأثرية لفلسطين » [1] فى لندن عام ١٨٦٥ وكانت باكورة هذه الأبحاث القيـــام بتسجيل للآثار الظاهرة فوق سطح الأرض أما التنقيبات فلم تبدأ إلا عام١٨٩١ فى « تل الحيسى » بإشراف الأستاذ بترى وفى عام ١٩٠٢ فى منطقة « جازر » حيث عثر « ماكاليستر » على كهوف سكنها إنسان العصر الحجرى الحديث وكان بعضها من صنع الإنسان فى ذلك الوقت كما أثبت أن إنسان العصر البرونزى استعمل بعض هذه الكهوف لدفن موتاه وأخذ فى تشييد مدينة تعتبر السلف القديم لمدينة « جازر » التاريخية [2] .

ومن المدن الأخرى التى دل التنقيب على أنها ترجع إلى العصر البرونزى المبكر هى « مجدو » (تل المتسلم) ولقد قامت بعثة المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو فى عام ١٩٢٥ بحفائر واسعة النطاق فى هذه المنطقة وكشفت عن كثير من أجزاء المدينة وأثبتت أنها عمرت بسكانها حتى آخر القرن الثانى عشر قبل الميلاد حيث

---

(1) The Palestine Exploration Fund.

(2) Macalister, R.A.S. ; "The Excavations at Gezir" 1912.

دمرت تماماً . ووفق « جوردون لاود » عام ١٩٣٧ إلى العثور على قصور الأمراء الذين حكموا المدينة باسم فراعنة مصر(١) .

ومن مدن التوراة القديمة التى عمل البحث الأثرى على تحقيقها كانت « لاكيش » ولقد ظل تحديد مكانها موضع جدل بين الأثريين . إذ نسبت فى أول الأمر إلى « أم لاكيس » الحالية ولكن بترى عارض هذا الرأى وأكد أنها هى « تل الحيسى » حيث حفر عام ١٨٩١ واتفق الرأى الآن أنها هى « تل الدوير » حيث قامت بعثة « واكوم — مارستون » للأبحاث الأثرية بالتنقيب عام ١٩٣٣ (٢) واتضح فيها مرحلة لسكنى الكهوف فى عصر البرونز المبكر ثم تلتها مرحلة قيام المدينة . ولقد كان مما عثر عليه فيها طاس صغيرة فى أطلال معبد صغير من عصر البرونز نقشت عليها نقوش بالكنعانية المبكرة التى تمثل حلقة الاتصال بين السامية والأبجدية الفينقية (٣) .

أما فى شمال سوريا فقد كشف التنقيب عن تاريخ واحدة من أهم المدن السورية وهى « راس شمرة » (شمالى اللاذقية وفى مواجهة قبرص) وقد اتضحت لها سلسلة طويلة من حضارات متتابعة ترجع إلى العصر الحجرى الحديث إذ عثر « شيفر » فيها على فخار يشابه فخار حضارة « مرسين » بجنوب الأناضول من العصر الحجرى الحديث كما عثر كذلك على نوع آخر من الفخار قارنه بفخار نينوى وتل حسونة فى بلاد العراق .

ولقد تهيأ لهذه المدينة أن تقوم بدور الميناء الدولى بين شعوب البحر المتوسط القديمة وذكرتها مراسلات تل العمارنة تحت اسم « اوجاريت » وقد دمرها زلزال عنيف فى منتصف القرن الرابع عشر ثم ارتد إليها عمرانها حتى دمرتها شعوب البحار فيما بين نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثانى عشر .

ولقد عثر فيها على مكتبة حوت المئات من الألواح الصلصالية كتبت

---

(1) Loud, Gordon ; "The Megiddo Ivories" 1939.

(2) Wellcome-Marston Archaeological Expedition

(3) Tufnel, Inge and Harding ; "Lachish" II (Tell ed Duwcir) The Fosse Temple 1940.

نصوصها بالأبجدية الأسفينية التى اعتبرت أقدم أبجدية معروفة كتبت بلغة سامية . وهيأت هذه الألواح بموضوعاتها القريبة من قصص التوراة ولغتها القريبة من الفينقية من ناحية ومن العبرية من ناحية أخرى مجالا واسعاً للبحوث اللغوية والتعليقات (١) .

وأريحا مدينة أخرى عتيقة قام بالكشف عنها بطريقته العلمية الفذة « جارستنج » متتبعاً نظام دراسة طبقاتها المختلفة وكشف فيها عن عمران متصل شغل سبع عشرة طبقة يمثل العصر الحجرى الحديث منها ما بين الطبقة العاشرة والسابعة عشر . ولقد قسم « جارستنج » هذه الطبقات إلى ثلاث فترات :

الأولى ــ الطبقات من العاشرة إلى السابعة عشر : فيما بين ٤٥٠٠ ــ ٤٠٠٠ ق . م وهو العصر الحجرى الحديث الأول .

والثانية ــ الطبقة التاسعة : فيما بين ٤٠٠٠ ــ ٣٥٠٠ ق . م وهو العصر الحجرى الحديث الثانى ويعاصر حضارة « تل حلف » .

والثالثة ــ الطبقة الثامنة : فيما بين ٣٥٠٠ ــ ٣٠٠٠ ق . م وهو العصر الحجرى الحديث الثالث المعاصر لحضارات « العبيد » و « جمدة نصر » .

وفى عصر البرونز المبكر أخذت « أريحا » تظهر كمدينة عامرة بالسكان (٢) ولقد تمكن من أن يثبت لها أربع فترات للعمران تتابعت إلى أن دمرت فى عام ١٤٠٠ ق . م .

ولقد أدى تعاقب البحوث الأثرية فى فلسطين وسوريا إذن إلى إبراز صورة متصلة لتتابع حضارى يبدأ فى العصر الحجرى الحديث وتتمثل حضارته فى أريحا وراس شمرة وبضعة مراكز أخرى ، ثم تعقبه حضارة عصر بداية المعادن ويمثلها المستوى الثامن فى أريحا ثم يلى ذلك عصر البرونز الكنعانى ويمثل

---

(1) Schaeffer, Claude, F.A. "Ugaritica, études relatives aux découvertes de Ras Shamra" 1939.

Cf. "Schaeffer ; "Stratigraphie Comparée et Chronologie de l'Asie Occidentale" 1948.

(2) Garstang, J. ; "The Story of Jericho" 1940.

مرحلة التطور إلى المدن التى ازدهر بعضها فقام بدور هام فى التبادل التجارى بين مصر جنوباً والحيثيين شمالا ودويلات بلاد ما بين النهرين شرقاً وسكان جزر بحر الأرخبيل غرباً .

وعلى نحو ما حقق التنقيب قيام هذه المدن حقق كذلك ما أصابها من دمار على أيدى الغزاة المختلفين فيما بين ١٤٠٠ و ١٢٠٠ ق . م ولقد كان منهم من وفد من الشمال والغرب ومنهم من وفد من الجنوب وهؤلاء الغزاة الأخارى هم الاسرائيليون .

إن قصة الكشوف الأثرية قصة طويلة متشعبة وأرجو أن أكون قد وفقت فى اختيار أهم هذه الكشوف وفى سرد الأحداث التى ميزت فترات هـــذه الكشوف وما كان يسود كل فترة من عوامل مختلفة أفسدت علينا تارة نتائج التنقيبات إلا أنها تارة أخرى أسدت إلينا من الفوائد الجمة ما جعل المؤرخين على استطاعة من أن ينفذوا إلى ظلمات الماضى السحيق فينيرونه ويتعرفون على مدى ما وصل إليه أجدادنا من البشر من التقدم فى حضاراتهم المختلفة .

عبد المنعم أبو بكر